

مصر . ولوبية وفيها : مصر ، والقانزم ، والحبشة ، والبربر وما والاها ،  
والبحر الجنوبي . وليس في هذه البلاد خنزير برى ولا أيل ولا غير  
ولا تيوس . وإتيوفيا<sup>(٢)</sup> وفيها : تهامة ، واليمن ، والسند ، والهند ،  
والصين . وإسقوثيا<sup>(٣)</sup> وفيها : أرمينية ، وخراسان ، والترك ،  
والخزر .

ويلاحظ هنا أن أقسام الأرض الأربعة هذه يونانية الأصل ،  
إلا أن مدلولاتها عند العرب كانت تختلف عنها عند الأغارقة .  
والصقـالـبة الذين ورد ذكرهم في كلامهم هم المسمون الآن  
« بالسلاف » وهم شعوب كانت متاخمة لبلاد المساميين وبلاد الروم ؛  
غير أنه لم يبلغ علماء العرب من أخبارهم إلا شيء يسير لا يعبا به .  
ولابن خرداذبة تاريخ : من أجمع الكتب ، وأبرعها نظاماً وأحوالها  
لاخبار الأمم وملوكها .

## البيروني

مولده ونشأته :

هو محمد بن أحمد أبو الريحان البيروني الخوارزمي ، المولود

( ٢ ) إتيوبيا في الأصل مشتقة من كلمتين يونانيتين ، معناهما الوجوه  
المحروقة من الشمس . وكان اليونان يطلقونها على الجهات الواقعة إلى  
جنوب مصر ، ويسكنها قوم سود الوجوه .

( ٣ ) إسقوثيا : كان اليونان يطلقون هذا الاسم على القبائل المتبربرة  
البدو الرحل ، في جنوب شرقي أوروبا وشمال غربي آسيا .

« بخوارزم » المسماة أيضا « كاث » ، عام ( ٣٦٢ هـ - ٩٧٣ م ) . يقال إنه على أثر حادث ، اضطر إلى أن يغادر مدينة خوارزم إلى مكان في شمالها يسمى « كوركانيج » . وبعد أن أقام به مدة تركه وذهب إلى جرجان ، واتصل هناك بشمس المعالي <sup>(١)</sup> قابوس بن وشمكير ، من أمراء وأدباء الدولة الزبيرية بـ جرجان ( ٣٦٦ - ٤٠٣ هـ ، ٩٧٦ - ١٠١٢ م ) . ألف له كتابا جليلا وأسماه « الآثار الباقية عن الأمم الخالية »

و « يبحث فيما هو الشهر واليوم والسنة عند مختلف الأمم القديمة ، من أشوريين ويونانيين إلى زمنه . وفي الكتاب جداول تفصيلية : للأشهر الفارسية ، والعبرية ، والرومية ، والهندية ، والتركية ، تبين كيفية استخراج التواريخ بعضها من بعض . وتجده أيضا جداول الملوك آشور وبابل والكلدان والقيبط واليونان ، قبل النصرانية وبعدها ، وكذا ملوك الفرس قبل الاسلام على اختلاف طبقاتهم . ولم تقتصر أبحاث الكتاب على ذلك ، بل أتى على ذكر المتنبئين وأئمتهم من أهل الأوثان

( ١ ) تولى ملك جرجان وطبرستان سنة ٣٦٦ هـ ، وحدث بينه وبين عضد الدولة بن بويه حرب صار بعدها قابوس طريدا ، فأحق بسبكتكين عند ظهور الدولة الغزنوية ، ووعده هذا الأخير رده إلى ملكه . ثم استطاع قابوس بمعاونة أحد قواده أن يستولى على الجبل ، وكتب إليه أهل جرجان يستدعونه فلبى دعوتهم وعاد أخيرا له أكثر مما كان يملك ، إذ أصبح ملكه يشمل : جرجان ، واستراباذ ، ومملكة الجبل جميعها ، وطبرستان . وحالف قابوس سبكتكين الغزنوي وقوى أمره .

والبدع في الاسلام ، وتعرض لأعيادهم وتقاليدهم وعاداتهم .

ومن هذا الكتاب ، يستدل أيضا على أن البيروني كان أول من استنبط تسطيح الكرة . وقد فصل ذلك في كتابه المذكور ، الذي يدل على أن له استنباطات جلية في الفلك والرياضيات . وقد ترجم « سخاو » المستشرق الألماني هذا الكتاب إلى الإنجليزية ، وطبع سنة ١٨٧٩ م في لندن ، وطبعت نبذة منه في باريس باللغة الفرنسية .

تنقلاته العلمية ومؤلفاته :

( ١ ) تمكن البيروني بدكائه وعلمه أن يصبح ذا مقام عظيم في الدولة الغزنوية . فبعد أن استولى سبكتكين سنة ٩٩٦ م على جميع خوارزم ، نزل البيروني « كوركانج » ، وذهب إلى الهند ، وجاب أحماءها ، وحقق لغتها وقام ، بأبحاث علمية كان لها تأثير في تقدم بعض العلوم . وفي أثناء إقامته بالهند كان يعلم الفلسفة اليونانية ، ويتعلم هو بدوره الفلسفة الهندية ، فأصبح من أوسع علماء الاسلام اطلاعا على آداب الهند وعلومها .

تناول كتبهم بالترجمة أو التصحيح أو النقد ، ومما قاله في إحدى

كتبه : « وعملت من السند هند كتابا سميته « جوامع الموجود في خواطر الهندود » في حساب التنجيم ، جاء ما تم منه خمسمائة وخمسين ورقة . . وهذبت زيج الأركند ، وجعلته بألفاظي ، إذ كانت الترجمة الموجودة منه غير مفهومة . وعملت تذكرة في الحساب والعد بأرقام السند والهند في ثلاثين ورقة ، وكيفية رسوم الهند في تعلم الحساب .

وعملت مقالة في الجوابات على المسائل الواردة من منجمي الهند ،  
ومقالة في حكاية طريقة الهند في استخراج العمر . وترجمت مقالة للهند  
في الأمراض التي تجرى مجرى العقوبة . وغير ذلك » .

ويحدثنا التاريخ بأن البيروني صاحب السلطان محمود الغزنوي في  
غزوته ، سنة ( ١٠٠٠ - ١٠١١ م ) ، وأصلح ما وجد من الخطأ في  
( خريطة ) الهند الشمالية ، وضبط مواقع مدنها ، وفعل ما فعله غيره من  
المتقدمين في تحقيق البلدان الإسلامية .

( ٢ ) وألف كتاب تاريخ الهند . وقد ترجمه أيضا « سخاو » ،

وطبع الأصل في لندن سنة ١٨٨٧ م . تناول فيه لغة أهل الهند وعاداتهم  
وعلمهم ، واعتمد عليه « سمث » وغيره من المؤلفين عند بحثهم في  
رياضيات الهند والعرب .

( ٣ ) وله كتاب « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل

أو مردولة » . وقد ترجم إلى الإنجليزية سنة ١٨٨٧ م .

( ٤ ) القانون المسعودي : ألفه لمسعود بن محمود الغزنوي .

وهو كتاب نفيس لا نظير له . يبحث في مبادئ علم الهيئة بالبحار ،  
وفي حساب المثلثات ، ودوائر الكرة السماوية ، وما يحدث بسبب  
حركة الكرة السماوية اليومية الظاهرية حول الأرض من مطالع  
البروج في الفلك المستقيم ؛ ثم معرفة عروض البلدان من ظل الشواخص ؛  
كما يبحث أيضا في حركات الشمس والقمر وتوضيحها بأشكال هندسية ،  
واتصالات النيرين وكسوفاتها ، وحساب رؤية الهلال ، والكواكب

الثابتة ، ومنازل القمر فيها ، وغير ذلك من المباحث الفلكية الرياضية .  
التي أثبتت له شهرة ونبوغا في عالم الرياضيات والهيئة .

قال سيديو عن البيروني : « إن أبا الريحان اكتسب معلوماته  
المدرسية البغدادية ، ثم نزل بين الهنود حين أحضره الغزنوي ، فأخذ  
يستفيد منهم الروايات الهندية المحفوظة لديهم : قديمة أو حديثة ،  
ويفيدهم استكشافات أبناء وطنه ، ويمشهاهم في كل جهة مر بها . وألف  
لهم ملخصات من كتب هندية وعربية . وكان مشيرا وصديقا للغزنوي ؛  
استعد حين أحضره بديوانه لإصلاح الغلطات الباقية في حساب بلاد  
الروم والسند وما وراء النهر . وعمل قانونا جغرافيا كان أساسا لأكثر  
القسموغرافيات المشرقية . نفذ كلامه مدة في البلاد المشرقية ؛ ولذا  
استند إلى قوله سائر المشرقيين في الفلكيات ، واستمد منه أبو الفداء  
الجغرافيا في جداول الأطوال والعروض ، وكذا أبو الحسن المراكشي .  
والحق أن البيروني كان أنبغ أهل زمانه في الرياضيات . ولولاه  
لكان تاريخ الرياضيات عند الهنود والعرب غامضا جدا .

مؤهلانه الأخرى :-

هذا ، ويقال إنه كان بينه وبين ابن سينا مكاتبات في أبحاث  
مختلفة ورد أكثرها في كتب ابن سينا . وهو وابن سينا من الذين  
شاركوا ابن الهيثم في رأيه القائل بأن شعاع النور يأتي من الجسم  
المرئي إلى العين ؛ وهذا ما يقول به رجال الطبيعة اليوم .  
وقد استطاع بتجاربه العديدة أن يوجد الوزن النوعي لثمانية

عشر عنصرا و مركبا ؛ بعضها من الأحجار الكريمة . وله كتاب  
في خواص عدد كبير من العناصر والجواهر ، وفوائدها التجارية والطبية .  
ومؤلفاته تربو على المائة والعشرين : في الفلك ، والأرصاد ، والأزياج  
وأحكام النجوم ، وهيئة العالم ، والرياضة .

وتعتبر مؤلفاته هذه أبلغ رد على ادعاءات المتعصبين الذين يزعمون  
أن العرب والمسلمين لم يكونوا مخترعين مستنبطين ، وأنهم لم  
يكونوا إلا نقلة عن غيرهم . وقد نقل الغربيون عنه كثيرا من  
العلوم الرياضية والنظريات الفلكية التي كشفها ، فلاغرو إذا اعتبره  
سخاوا أكبر عقلية عرفها التاريخ في كل عصوره . وهذا المستشرق  
الذي عرف للببيروني فضله ونشره بين الناس ؛ يدعو إلى تأليف جمعية  
لتمجيده وإحياء ذكره ، تسمى جمعية الببيروني .

وقد توفي في « غزنة » من أعمال أفغانستان ، سنة ٤٤٠ هـ - ١٠٤٨ م  
تاركا وراءه ذخائر وكنوزا من العلوم الرياضية والفلكية .

## المسعودي

( المتوفى سنة ٣٤٦ هـ - ٩٥٦ م )

مولده ونشأته :-

هو قطب الدين أبو الحسن علي بن عتبة . ولد في بغداد في حدود  
القرن التاسع للميلاد . وأقبل على طاب العلم حتي حل منه في أعلى  
منار . وضرب في علم الجغرافيا والتاريخ بسهم نافذ . وقد أعانه على  
التبرز والفوق في علمي التاريخ والجغرافيا ، رحلاته الكثيرة ؛ فانه  
جاب الآفاق حتي بلغ الشرق والغرب . وقال عن نفسه :

ينجم أطراف البلاد فتارة لدى شرقها الأقصى وطورا إلى الغرب  
سرى الشمس لا ينفك تقدفه النوى إلى أفق ناء يقصر بالركب  
رحلاته وتنقلاته العلمية :-

يعتبر المسعودى من رجال الرحلات عند المسلمين ؛ فإنه قد  
تنقل من بلد إلى بلد : فطاف فى فارس ، ونزل على اصطخر ، وأقام  
بها مدة . ثم رحل إلى الهند وفحص بعض أقطارها ؛ وكان قد رآها  
مرة قبل أربع سنوات . وزار سيلان والتبت والأصقاع التى حول بحر  
قزوين . وعبر البحر الجنوبى وجاب سواحل إفريقيا الشرقية . وزار  
السودان وبلاد العرب الجنوبية والشام والروم . وكان فى أواخر أيامه  
يقيم تارة بمصر وتارة بالشام . وتواريخ رحلاته لهذه البقاع غير معروفة  
على وجه الدقة ؛ إلا أن لدينا من الأسباب ما يفيد أنه انقطع عن  
الرحلة حوالى سنة ٩٤٠ م . وقد لزم بيته مشغلا بالتأليف الجغرافية  
أيام الخليفة المطيع ( ٣٣٤ - ٣٦٣ هـ ) وكانت وفاته بالفسطاط .  
مصنفاته :-

لا بد أن نشير هنا إلى أن فنون التاريخ قبل المسعودى كانت  
كثيرة : منها ما هو خاص بالسير والمغازى ؛ وكان ابن إسحاق من  
أشهر من كتب فيه ؛ كما أن الكلبى وابنه كتبوا فى فن النسب ،  
والواقدى والمدائنى وأبو مخنف فى الفتوح ، وابن قتيبة والهيثم ابن  
عدى وابن واضح اليعقوبى فى تاريخ الملوك . وألف فى هذه الفنون  
فى العصر الأول العباسى مئات من الكتب : منها المنفرد بفن ،

ومنها الشامل لعدة فنون ؛ حتى كان الامام ابن جرير الطبري هو القدوة في تأليف التواريخ العامة الجامعة لأكثر هذه الفنون . أما المسعودي فإنه زاد على هذه المباحث العامة مباحث أخرى : اجتماعية ، وسياسية ، وطبيعية ، وجغرافية ، وأدبية .

للمسعودي :

( ١ ) كتاب « أخبار الزمان ومن أبادد الحداث » . قدم فيه القول بهيئة الأرض ومدنها وجبالها وأنهارها ومعادنها ، وأخبار الأبنية العظيمة ، وشأن البداءة ، وأصل النسل ، وانقسام الأقاليم ، وتباين الناس . ثم أتبع بأخبار الملوك الغابرين ، والأهم الدائرة في القرون الخالية ، وأخبار الأنبياء .

( ٢ ) وكتاب الأوسط . جمعه إجمال ما بسطه .

ثم رأى اختصار ما وسطه في كتاب سماه :

( ٣ ) « مروج الذهب ومعادن الجوهر في تحف الأشراف والملوك وأهل الدرايات » . قال ابن خلدون في وصفه : « شرح فيه أحوال الأمم والآفاق لمهده في عصر الثلاثين والثلاثمائة غربا وشرقا ، وذكر نحلهم وعوائدهم ، ووصف البلدان والجبال والبحار والممالك والدول ، وفرق شعوب العرب والعجم ، فصار إماما للمؤرخين يرجعون إليه ، وأصلا يعولون في تحقيق الكثير من أخبارهم عليه » . ومع هذا فقد تناوله ابن خلدون بالنقد ، وذكر له شيئا من الأغلاط التاريخية . وكتاب مروج الذهب ، يعتبر من أجل المصنفات العربية .

وهو بلا شك موسوعة فيها معدن من المعلومات: التاريخية والجغرافية والمصرية الخاصة بالشرق في القرن التاسع للميلاد؛ بل هو تاريخ عام مشتمل على شيء قيم في وصف جميع الممالك المعروفة في أقسام الدنيا الثلاثة؛ وبخاصة ما يتعلق بأفريقية والهند والسند وآسيا الوسطى. طبع هذا الكتاب بمصر، وطبع أيضا في ثمانية مجلدات في باريس مترجما إلى الفرنسية؛ وباشر المجمع الشرقي طباعته سنة ١٨٦١م وأجزأها سنة ١٧٨٣م. أما كتابه الأول « أخبار الزمان »؛ فلم يصل إلينا. وقيل إنه عثر على نسخة منه في مسكن السلطان محمد الثاني « الفاتح » في استامبول. كما أن كتابه الأوسط لم يوقف له على خبر، وهو ينيف مع أخبار الزمان على عشرين مجلدا.

(٤) « كتاب التنبيه والاشراف » في التاريخ. وقد أودع المسعودي في كتبه هذه ما شاهدته ورآه يعينى رأسه في أسفاره؛ وما رواه عن الثقات. وذكر فيها تأليف كانت منتشرة شائعة في أيامه، ثم فقدت فلا نعرف لها الآن آثارا: منها كتاب الحكيم الكندي المسمى « رسم المعمور من الأرض ». نبذ من كتاباته: —

سطر المسعودي أخبار رومة<sup>(١)</sup> وروملس، ونقلها عنه ابن

(١) ومما تجب الإشارة إليه؛ أن مؤرخى العرب لم يتعرضوا لذكر بلاد الأفرنج أو وصفها؛ حتى إن سائر مدن إيطاليا وأوروبا لا تعثر لها على ذكر مع كثرتها وشهرتها في ذلك الزمان. ويجب أن يستثنى من ذلك مدينة

الأثير . فيقول المسعودى : « أول من يهدم من ملك في رومية ؛ غايوس قيصر . وقد كان ملك فيها قباه مملوك : أولهم روملس وأرمانوس المعروفان بابنى الذئبة » . ويشير المسعودى هنا إلى حكاية كانت شائعة عند القدماء ؛ وهى أنه لما ولد روملس وأخوه ريمس ، أضمر جدهما أن يهلكهما خوفا منهما على نفسه ومملكته ؛ فأمر بوضعهما فى تابوت وإغراقهما فى نهر ؛ وكان إذ ذاك فيضان . فلما رجع النهر إلى مجراه رسا التابوت تحت شجرة ؛ فسمع راع هناك صراخا ، فأسرع إلى الناحية التى منها يصدر استهلال الطفلين ؛ فرأى أمرا عجيبا مدهشا ، وهو أن ذئبة ترضعهما ؛ فاتخذها ابنين له ، ورباهما . ولهذا السبب صارت الذئبة والطفلان شعار رومية ، وهذا الشعار شائع فى أنحاء إيطاليا . وقد رأينا تمثالا له فى مدخل ميناء جزيرة رودس التابعة لإيطاليا من سنة ١٩١٢ م

قال فى وصف الأرض : « قسم الحكاء الأرض إلى جهة المشرق والمغرب والشمال والجنوب ، وقسموا ذلك إلى قسمين : مسكون وغير مسكون ، وعامر وغير عامر . وذكروا أن الأرض مستديرة ، ومركزها فى وسط الفلك ، والهواء محيط بها من كل الجهات . . . إلى أن قال : والأفلاك مستديرة محيطة بالعالم ، وهى تدور على مركز الأرض

---

واحدة ، هى مدينة رومة ، فقد وضعها جماعة من الأئمة : كابن خرداذبة ، وابن الفقيه الهمداني ، والمسعودى . وذكروا عنها أحاديث عجيبة ، وأطال ياقوت الحمدي فى الكلام عليها .

والأرض في وسطها مثل النقطة في وسط الدائرة . وهى تسعة أفلاك ، فأقربها من الأرض فلك القمر ، وفوق ذلك عطارد ، وفوق ذلك فلك الزهرة ، ثم فلك الشمس متوسطة بين الأ فلاك السبعة ، وفوقها فلك المريخ ، وفوقه فلك المشترى ، وفوق ذلك فلك زحل ؛ وفى كل فلك من هذه الأ فلاك السبعة كوكب واحد فقط ، وفوق ذلك زحل الفلك الثامن ، والفلك التاسع ؛ وهو أرفع وأعظم جسما ، وهو الفلك الأعظم ، يحيط بالأ فلاك التى دونه مما سميناه ، ودورته من المشرق إلى المغرب دورة واحدة فى كل يوم .

وقال فى المد والجزر : « والمد مضى الماء فى فيحته <sup>(١)</sup> وسيحته <sup>(٢)</sup> »

وسنن جريته . والجزر رجوع الماء على ضد سنن مضيه ، وانكشاف ما مضى عليه فى هيجه . . . إلى أن قال وقد تنازع الناس فى علة المد والجزر : فمنهم من ذهب إلى أن ذلك من القمر مجانس للماء وهو يسخنه فينبسط . وشبهوا ذلك بالنار إذا سخنت ما فى القدر ، وأن الماء يكون فيها على قدر النصف أو الثلثين ، وكلما انبسط فى التدرار ترفع وتدافع ، حتى يفور ، فيتضاءع عن كميته فى الحس ، وينقص فى الوزن ،

---

( ١ ) يقال فاح المسك فوحا وفيحا إذا انتشرت رائحته . . . وبحر أفيح وفياح ، بين الفيح واسع . والفيحاء الواسعة من الدور . فالمعنى فى انتشاره واتساعه .

( ٢ ) ساح الماء يسيح سيجا ، جرى على وجه الأرض . . . والسيح الماء الجارى الظاهر . . . وأساح نهرا أجراه . والمعنى فى جريانه وارتقاعه .

لأن من شرط الحرارة أن تبسط الأجسام ، ومن شرط البرودة أن تضغطها . وذلك أن قعور البحار تحمى ؛ فيتولد في أرضها عذوبة وتستحيل وتحمى كما في البلاليع والآبار ؛ فإذا حمى ذلك الماء انبسط وزاد ، وإذا زاد ارتفع فدفح كل جزء منه فطفأ على سطحه وبان عن قعره . وإن القمر إذا امتلأ حمى الجو حموا شديدا ، فظهرت زيادة الماء وسمى ذلك المد الشهري .

وقالت طائفة أخرى : إن علة المد والجزر في الأبحر ، تتولد من الأبحرة التي تتولد من بطن الأرض ؛ فانها لا تزال تتولد حتي تكثف وتكثر ، فتدفع حينئذ ماء هذا البحر لكثافتها ، فلا تزال كذلك حتي تنقص موادها من أسفل ؛ فإذا انقطعت موادها تراجع الماء حينئذ إلى قعر البحر .

ولا حاجة بنا إلى القول بأن ما كتبه المسعودي في الطبيعيات نقله عن اليونان الأقدمين ، وقد أصبح الآن من خرافات القدامى التي عفت .

ومن كلام المسعودي في الخليفة: «إن أول ما خالق الله عز وجل ، الماء . وكان عرشه عليه ؛ فلما أراد أن يخلق الخلق ، أخرج من الماء دخانا ، فارتفع الدخان فوق الماء فسماه سماء ، ثم أيبس الماء فجعله أرضا واحدة . ثم فتقها فجعلها سبع أرضين في يوم الأحد والاثنين . وخلق الأرض على حوت ، والحوت في الماء ، والماء على الصفا ، والصفا على ظهر ملك ، والملك على صخرة ، والصخرة على الريح .»

وإنك لتلحح في هذا الرأي تأثير الفلسفة اليونانية القديمة مما قدمنا لك طرقاً منها، وكذا الاسرائيليات التي تأثر بها العصر؛ كما تلاحظ أيضاً أن الجزء الأول من نظرية الخليقة هذه، ينطبق إلى مدى بعيد على نظرية «لابلاس» العالم الرياضى الفرنسى، الذى فرض أن العالم خالق من سديم (دخان) برد تدريجاً بسبب الاشعاع، ثم تكاثفت أجزاؤه نحو المركز. (وقد شاعت نظرية لابلاس هذه سنة ١٦٩٦ م).

وإذا لم يكن للمسعودى فضل فيما كتبه فى الفلكيات والطبيعيات إذ أن أغلبه منقول عن اليونان كبطليموس ومن أتى بعده — فإن فضله واضح فى وصفه: اقاليم الأرض، وأنهارها، وجبالها، وسكانها وممالكها، وملوكها وسيرهم وأحوالهم. ومما تجب الإشارة إليه أن المسعودى عقد فصلاً ممتعاً فى وصف مصر ونيابها وعجائبها وأخبار ملوكها، توخى فيه الدقة ما استطاع. وقد أخذ عنه ابن الأثير كثيراً من أخباره، فلا عجب إذا سماه ابن خلدون إمام المؤرخين.

## الشرىف الادرىسى

هو أبو عبد الله محمد بن محمد الادرىسى، المعروف بالشرىف الادرىسى. وهو كريم المحدث، من سلالة إدريس بن عبد الله (١).

---

(١) فر إدريس بن عبد الله بن الحسن بن على — فى أواخر حكم موسى الهادى — إلى بلاد المغرب، على أثر الثورة التى قام بها الحسين بن على ابن الحسن المثلث سنة ١٦٩ هـ، والتى انتهت بقتل الأخير فى موقعة «فخ»

والأ دارسة الماويون هم أصحاب المغرب الأقصى ، الذين ماكوا إفريقيا الشمالية الغربية من سنة ( ١٧٢ - ٣٧٥ هـ ، ٧٨٨ - ٩٩٠ م ) .  
ولد الشريف الادريسي بمدينة « سبته » تجاه جبل طارق سنة ( ٤٨١ هـ - ١٠٨٩ م ) . ولما شب وترعرع ، تنقل في ربوع الأندلس ، ودرس في جامعة « قرطبة » ؛ وكانت من أعظم جامعات العالم وقتئذ يؤمها الأوروبيون . من نصارى ويهود ؛ كما يؤمها المسلمون .

ولما انتهى من دراسته ، جاب إفريقيا الشمالية وآسيا الصغرى ، وامتلاً علماً وحكمة ، وذاع صيته وفضله ؛ فدعاه الملك « روجر الثاني » (١) ملك صقلية وجنوب إيطاليا ، فأبى طلبه ، وألف كتابه القيم « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » . والسبب الذي من أجله ألف هذا الكتاب ، ما حكاه الادريسي نفسه : إن الملك روجر الثانى ملك

---

الشهيرة . وقد استطاع إدريس أن يصل إلى بلاد المغرب بمساعدة واضح ، عامل البريد على مصر . ونزل بمدينة « ويلي » سنة ١٧٢ هـ ونشر دعوته وبايعه الناس . واحتال الرشيد على قتله ، وأرسل إليه من دس له السم . وقد بايع أنصاره ابناً له يسمى « إدريس الثانى » واستمرت دولة الأ دارسة رغم أنف الرشيد .

( ١ ) من سلالة النور منديين المتبربرين الذين أغاروا على دولة شارلمان فى أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر الميلادى . وسرعان ما اندمجوا فى الفرنجة ، واعتنقوا النصرانية ، واستعملوا لغة فرنسا ، وأقاموا فى المقاطعة المعروفة : « بنورماندية » . وقد نزلوا فى القرن الحادى عشر بجنوب إيطاليا

صقلية وجنوب إيطاليا. وبعد أن استقرت له الساطة، وأطاعه الشعب—  
أراد أن يحقق تخوم مملكته وجبالها وبحارها ومسالكها، ثم زيادة على  
ذلك أراد أن يعرف أحوال سائر البلاد؛ فجمع كتب علماء اليونان  
واللاتين، وسأل الأدباء والألباء، ولم يأل جهدا في تحصيل هذه  
الأخبار مدة خمس عشرة سنة. وبعد أن رسم على صفحة مسافة  
البلاد، أمر أن تفرغ من الفضة الخالصة<sup>(١)</sup> دائرة عظيمة الجرم، ثم  
أمر الفعلة أن ينقشوا فيها صور الأقاليم السبعة؛ ببلادها وخليجانها—  
وأنهارها، وما بين كل بلد من الطرق المسلوكة والمسافات المحدودة.  
ثم أمر الشريف الادريسي أن يؤلف كتابا في شرح صور هذه  
الدائرة، ويصف فيه أخبار البلاد كلها وأحوال سكانها؛ فامثل  
الادريسي أمره، وصنف كتاب « نزهة المشتاق » اهـ.

هذا، وقد استعان الشريف الادريسي في تأليف هذا الكتاب  
بمصنفات من تقدمه، وجعل له تسعة وستين رسما نقلها عن الكرة  
المنوه عنها؛ كما استعان بالرواد الذين بعثهم إلى الأقطار المختلفة ليجوبوها

---

بقيادة زعيمهم « روبرت جيسكار » ( R. Guiscard )، وانزعوا الحكم من  
الدولة الرومانية الشرقية. ثم عبروا إلى صقلية سنة ١٠٦٠م، وطردوا العرب  
منها، وأقاموا مملكة عظم شأنها أيام ملكها « روجر الثاني ». والمعروف  
عن هذا الملك أنه كان يحب الشرق والشرقيين، حتى إن بلاطه كان مطبوعا  
بطابع شرقي جلي.

( ١ ) وزنها أربعمائة رطل رومي، كل رطل اثنا عشر ومئة درهم.

ويحملوا إليه أوصافها وقياس أطوالها وعروضها . ولم يتم تأليف هذا الكتاب إلا سنة ١١٥٤ م .

### قيمة هذا الكتاب في عالم الجغرافيا : —

يعتبر كتاب نزهة المشتاق أوسع جغرافية ألفت إلى ذلك الحين . وقد أودعه مؤلفه من جغرافية المغرب وأسماء المدن المحققة وأخبارها الصحيحة — ما لا يحصى عدده ؛ على حين أن ما ذكره آل الطبقة الأولى من جغرافي الاسلام من ذلك ، يسير ولا يخلو من الغلطات . وقد أفاض الإدريسي في وصف صقلية ، وذكر مدينة مسينا ، وقال إنها من أجل البلاد وأكثرها عمارة ، ولم تزل مسينا كما ذكرها الإدريسي إلى أن خربتها الزلازل في أول القرن الحالى . وكان اهتمام العالم بهذا الكتاب عظيما جدا لدرجة أن عنيت كل أمة بما كتبه الإدريسي عنها ؛ ولذا ترجم إلى اللاتينية سنة ١٦٩٤ م ، ترجمه إليها عالمان مارونيان هما : جبرائيل الصهيوني الأهدنى المتوفى سنة ١٦٤٨ م ، والقس يوحنا الحصري . وهو أول كتاب في هذا الفن تداوله الأفرنج . وطبع منه القسم المختص بأسبانيا مع ترجمته الأسبانية ، في « مدريد » سنة ١٧٩٩ م ؛ كما طبع منه وصف الشام وفلسطين في « ليبسك » بألمانيا سنة ١٨٢٨ م . وطبع جانب منه في « ليدن » بهولندة سنة ١٨٦٤ م بعنوان « المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس » . ولم يطبع هذا الكتاب كله ، إلا أنه يوجد منه نسخ خطية كاملة في بعض دور الكتب الأوروبية . وفي مصر واحدة منها منقولة بالتصوير

الشمسى عن نسخة بالقسطنطينية . ووجد فى بعض المصادر أن هذا الكتاب طبع بالعربية فى رومة سنة ١٥٩٢ م ، وترجم إلى اللاتينية كما تقدم ، باسم « الجغرافية النوبية » ، لأن الأدريسى من ذرية قوم ملكوا بلاد النوبة ومصر .

هذا ، وللأدريسى كتاب آخر أسماه « أنس المهج وروض الفرج » .  
خلص فيه ما أورده فى كتابه نزهة المشتاق من وصف صقلية ، وزاد عليه ما يختص بسائر بقاع إيطاليا . ولا يوجد من هذا الكتاب على ما يعلم إلا نسخة واحدة فى القسطنطينية . وقد سمي كتاب نزهة المشتاق « بالروجارى » أيضا نسبة لروجار الثانى واعترافا بفضله .

وهذان الكتابان هما مدار علم العرب بمعرفة الغرب ووصفه ، ولذا يعتبر الأدريسى نقطة التماس بين جغرافية الاسلام وجغرافية الافرنج ؛ وذلك لأن مؤلفى الطبقة الأولى من الأقدمين إلى الشريف الأدريسى ومنهم ياقوت الحموى - لم يحصلوا من العلم بأوروبا وإيطاليا إلا القليل ؛ ولم يذكروا إلا أسماء بعض المدن أو بعض الأمم ؛ دون تفصيل أخبارها وشرح أحوالها ؛ ما عدا أخبار مدينة رومية كما مر بك ذلك فى المسعودى . وقد جاء ما ذكره عن أمم أوروبا مشوها مغلوطا ؛ لجهلهم بلغات تلك الشعوب ، وعدم تيسر امتزاجهم بهم ؛ وذلك كقولهم إن الافرنج لا يغتسلون فى العام إلا مرة أو مرتين ، وما يشبه ذلك (١)

---

( ١ ) من أراد أن يعلم لجهل علماء الطبقة الأولى من العرب بأكثر أمم الغرب ، مع أن الأندلس دار السلام واقعة فى الغرب ، وأن المسلمين

أما علماء الطبقة الثانية وعلى رأسهم الشريف الأدريسى ، فقد سدوا هذا النقص بامتزاجهم بالأوروبيين ومعرفةهم بلغاتهم . وقد اكتفى كثير من المؤرخين والجغرافيين من العرب بأن نقلوا عن الأدريسى عند الكلام على الأوروبيين حرفا بحرف ، كابن سعيد المغربي ، وأبى الفداء صاحب كتاب « المختصر في أخبار البشر » وهو أول كتاب إسلامي في أخبار العرب وخلفائهم تداوله حكام أوروبا ، وشهاب الدين العمري صاحب كتاب « مسالك الأبصار في ممالك الأمصار » ، وابن الوردي ، وغيرهم .

جاء في كتاب نزهة المشتاق عن وصف مصر ما يأتي : « ومصر بالجملة عامرة بالناس ، نافقة بضروب المطاعم والمشارب وحسن الملابس ، وفي أهلها رفاهة وظرف شامل وحلاوة ، ولهوا في جميع جوانبها بساتين وجنات ونخل وقصب سكر ، وكل ذلك يسقى بماء النيل . ومزارعها ممتدة من أسوان إلى حد الاسكندرية . ويقوم الماء

---

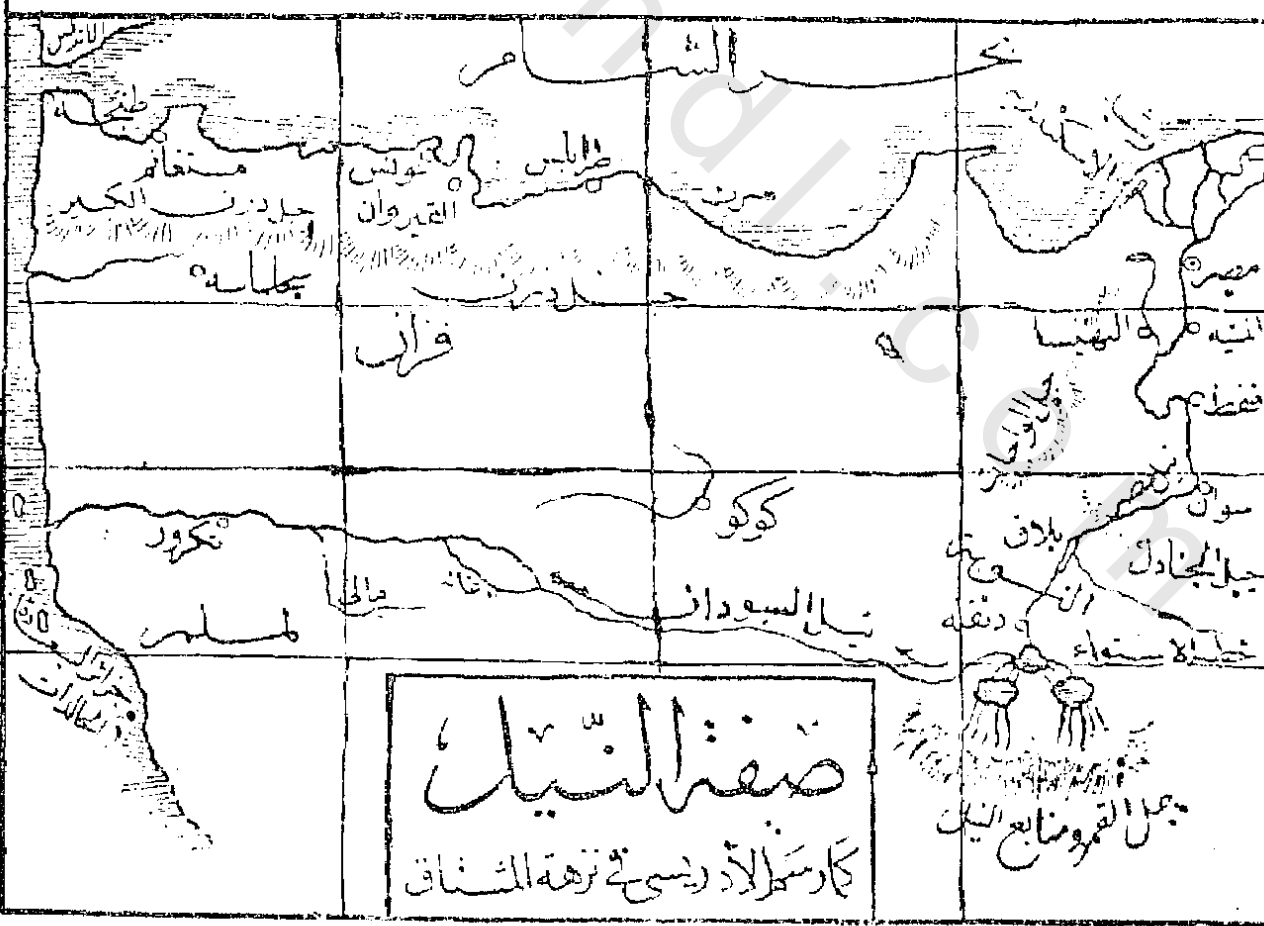
كانوا يختلفون إليها من المشرق ويخرجون منها — أجنبناه بأن أولئك الذين خرجوا إليها كانوا يسلكون من مصر إلى برقة ، ثم إلى طرابلس ، ثم إلى القيروان وتونس . ثم يسرون مدة عشرة أيام محاذين للساحل غير متوغلين ، حتى يحاذوا الأندلس .

هذا هو طريقهم المسلك ، وهو بعيد كما ترى عن أوروبا وبلاد الفرنجة ، ولذا تراهم إذا ما تعرضوا للكلام على الأوروبيين ، تحبطوا في بيداء التخمين والخرافة .

فى أرضهم منذ ابتداء الحر إلى الخريف ، ثم ينضب فيزرع عليه . ثم لا يسقى بعد ذلك ما زرع عليه ولا يحتاج إلى سقى البتة . وأرض مصر لا تمطر ولا تحتاج البتة . وليس بأرض مصر مدينة يجرى فيها الماء من غير حاجة إلا الفيوم . وأكثر جرى النيل إلى جهة الشمال ، وعرض العمارة عليه فى حد أسوان ما بين نصف يوم إلى يوم ؛ إلى أن ينتهى إلى الفسطاط ، ثم تعرض العمارة وتتسع ؛ فيكون عرضها من الاسكندرية إلى الجرف الذى يتصل ببحر القلزم نحو ثمانية أيام . وليس فى أرض مصر مما يحوز ضفتى النيل شيء قفر ؛ وإنما هو كله معمور بالبساتين والأشجار والمدن والقرى والناس والأسواق والبيع والشراء . وبين طرفى النيل — فيما ثبت من الكتب — أربعة وثلاثون وخمسمائة وخمسة آلاف ميل .

وهذا الوصف كما ترى غاية فى الدقة . وهو يعتبر نموذجاً للبلاد التى وصفها فى كتابه الخالد .

هذا ، والمصور (شكل ٨) من وضع الادريسى ، وفيه رسم النيل وما يليه غرباً إلى المحيط . والغرض منه بيان ما جاء فى وصف هذا النهر بنزهة المشتاق وهو وصف غريب ؛ إذ جعل نيل السودان ( ولعله النيجر ) يخرج من منابع النيل ؛ ويجرى غرباً حيث يصب فى المحيط الغربى أو بحر الظلمات على مقربة من جزائر الخالدات . قال الادريسى : « وفى هذا الجزء ( الرابع من الاقليم الأول ) افتراق النيلين ؛ أعنى نيل مصر الذى يشق أرضها ، وجريه من الجنوب إلى الشمال ، وأكثر مدن مصر على ضفتيه معاً وفى جزائره ؛ والنسم الثانى من النيل يمر



من جهة المشرق إلى أقصى المغرب ، وعلى هذا القسم من النيل جميع بلاد السودان أو أكثرها . وهذان القسمان مخرجهما من جبل القمر الذى أوله فوق خط الاستواء بست عشرة درجة ؛ وذلك أن مبدأ النيل من هذا الجبل من عشر عيون : فأما الخمسة الأنهار منها فانها تنصب وتجتمع فى بطيحة كبيرة ، والخمسة الأنهار الأخر تنزل أيضا من الجبل إلى بطيحة أخرى كبيرة . ويخرج من كل واحدة من هاتين البطيحتين ثلاثة أنهار ، تجتمع إلى أن تنصب فى بطيحة كبيرة جدا ؛ إلى أن قال : « وهذه البحيرة المذكورة فوق خط الاستواء مماسة له ؛ وفى أسفل هذه البحيرة التى تجتمع بها الأنهار جبل معترض يشق أكثر البحيرة ، ويمر منها إلى جهة الشمال مغربا ، فيخرج معه ذراع واحد من النيل فيمر فى جهة المغرب ، وهو نيل بلاد السودان الذى عليه أكثر بلادها . ويخرج منها مع شق الجبل الشرقى الذراع الثانى ، فيمر أيضا إلى جهة الشمال ، فيشق بلاد النوبة وبلاد أرض مصر ، وينقسم فى أسفل أرض مصر أربعة أقسام ؛ فثلاثة أقسام منها تنصب فى البحر الشامى ، وقسم واحد ينصب فى البحيرة المملحة التى تنهى قرب الاسكندرية . وبين هذه البحيرة وبين الاسكندرية ستة أميال ، وهى لا تتصل بالبحر ؛ بل هى من فيض النيل — ل » انتهى .

وإن تعجب فعجب أن ترى فى المصور وفى المبارات شيئا يسمى نيل السودان ، يخرج من حيث يخرج النيل ، ويجرى غربا إلى بحر الظلمات ، وأن تحدثك الجغرافية القديمة بوحود نهر يشق الصحراء

الكبرى ، وأن تسمع أن بعض الرحالين من أهل القرون الوسطى  
كابن بطوطة : يذكر هذا النهر ويصفه هو والبلاد التي يرويها ، وما فيه  
من حيتان ودواب ، وما على ضفتيه من مدن وقرى ؛ ثم لا تراه الآن  
على المصورات الجغرافية ؛ فهل تبدلت الأرض غير الأرض ؟ أم  
شاخ هذا النهر الطويل العريض وهدم ثم قبر وعفا أثره حتى صار  
نسيا منسيا ؟

إن الناظر في المصورات القديمة المأثورة عن هيرودوت  
وبطليموس — وقد مرت بك — يرى :

( ١ ) أن الأول منهما يفرض أن النيل ينبع من جبال أطلس ،  
ثم يشرق إلى مدينة مروي ، ثم يتجه إلى مصر شمالا .

( ٢ ) وأن الثاني يرسم النيل مستقلا ينبع من جبل القمر عند  
خط الاستواء ، ثم يرسم قبالة مروي قطعاً من أنهارها ؛ يسمى أحدها  
جبر ، والثاني نجير ، والثالث دردوس وهو يصب في المحيط الأطلسي ؛  
وتكاد تكون على استقامة واحدة . فهل تحت عوامل التعرية خطوط  
تقسيم المياه بين هذه الأنهار ؛ فصارت نهرا واحدا يجري إلى الغرب  
على خلاف نيل هيرودوت ، وهو الذي وصفه الإدريسي ومن نسج  
على منواله ؟ أم ماذا ؟ وإذا كان هو هو ؛ فأين هذا النهر الآن ؟ أهو  
النيجر ؟ هذا ما لا نستطيع أن نؤكد .

هذا ، ويلاحظ في (خريطة) الإدريسي أن الشمال فيها إلى أسفل  
والجنوب إلى أعلى ؛ على خلاف (خرائط) اليوم .

## ابن بطوطة

(٧٠٣ م — ٧٧٩ هـ)

مولده ونشأته :-

هو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي<sup>(١)</sup> الطنجي . ولد بطنجة في ١٤ من رجب سنة ٧٠٣ هـ ٢٤ من نوفمبر سنة ١٣٠٤ م . وهو ينتمي إلى أسرة عريقة في الاشتغال بالعلوم الشرعية ( أى الدينية ) فهو من أبناء الطبقة الدينية العليا ؛ على حد التعبير الأوروبي . ولا يعرف عن حياة ابن بطوطة الأولى شيء كثير ؛ إلا أن الراجح أن الوسط الديني الذي نشأ فيه قد أرهف ذكاه ، وبعثه على التفقه في الدين والشرع . يضاف إلى ذلك — كما يفهم من كتابه — أنه تعلم الأدب ، وروى الشعر ونظمه ، ودرس اللغة الفارسية . ومما يجدر ذكره أن أسرة ابن بطوطة أنجبت عدة أفراد خدموا الشرع والقضاء الاسلامي . وقد ذكر ياقوت الحموي في معجم البلدان أن ابن بطوطة كان له ابن عم قاضيا بمدينة « أندة » ، بين إشبيلية ومالقة بالأندلس الاسلامية ؛ فلا عجب إذا عرف ابن بطوطة بالتقوى والورع ، وعنى بكل ما هو ديني أو شرعي . وقصد في رحلاته إلى ممالك المسلمين للحج ؛ ولاستطلاع أخبارها والوقوف على أحوالها .

---

( ١ ) نسبة إلى لواته ، وهى قبائل كانت تسكن بلاد برقة قرب الحدود

المصرية الغربية ، فان بطوطة إذن لواتي أولا وطنجي ثانيا .

رحلاته : —

قال ابن بطوطة : « كان خروجي من طنجة مسقط رأسي ، في يوم الخميس الثاني من شهر رجب الفرد عام خمسة وعشرين وسبعمائة ، معتمدا حج بيت الله الحرام <sup>(١)</sup> وزيارة قبر الرسول عليه السلام ، منفردا عن رفيق آنس بصحبته ، وركب أكون في جلته ، لباعث في النفس شديد العزائم ، وشوق إلى تلك المعاهد الشريفة كامن في الحيازم ، فحزمت أمرى على هجر الأحباب من النساء والذكور ، وفارقت وطني مفارقة الطيور للوكور . وكان المدى بقيد الحياة ، فتحلمات لبعدهما وشبا ، ولقيت كما لقيا من الفراق وصبا . وسنى يومئذ ثنتان وعشرون سنة . . . »

ثم ذكر البلاد التي وصل إليها في أراضى البربر ، إلى أن وصل إلى مدينة الاسكندرية ، وفي الاسكندرية زار قاضيها ، ونزل ضيفا على أحد علمائها المسمى « برهان الدين » الذي توسم فيه شغفا بحجوب الأمصار وحبما للتحول ، وأوصاه إذا ذهب إلى الهند أو السند أو الصين — أن يزور أفرادا سماهم له . ويقول الأستاذ زيادة : « ويظهر أن أطراف هذا الحديث المبروك حركت في قلب الشاب ابن بطوطة عزمًا على زيارة جميع البلاد الإسلامية ، وأن هذا العزم قوى في نفسه بعد تجاربه اثناء هذا السفر إلى مكة : ذلك أنه زار في طريقه إلى

( ١ ) يظهر أنه استمال قلوب من كان معه بعلمه وتقواه ، فعينوه قاضيا

على التافلة قبيل مسيرهم من تونس .

القاهرة أحد الأولياء الصالحين ؛ وكان مقبلاً بقرية قبالة بلدة فوه على النيل ؛ فرأى في منامه — وهو عنده — أنه زار مكة واليمن والهند على جناحي طائر أخضر . وقد قص رحلة المستقبل رؤياه على الشيخ ففسرها بأنه سيزور مكة واليمن والعراق وبلاد الترك والهند . هذا ولا يزال في الاسكندرية طريق يسمى باسم ابن بطوطة .

وصوله إلى الشام :

بعد أن ترك الاسكندرية وطاف أرض الوجه البحري ووصل إلى مصر ( يقصد القاهرة ) « أم البلاد وقرارة فرعون ذى الأوتاد » ، ثم عم نواحي الصعيد حتى إدفو ، وعبر النيل إلى العطوانى ، وركب الجمل إلى مزار أبى الحسن الشاذلى ، ومنها سار بالبر خمسة عشر يوماً إلى عيذاب المصرية ؛ إلا أنه لم يستطع الرحيل إلى مكة عن طريق عيذاب على البحر الأحمر ؛ فعاد إلى القاهرة ، ومنها قصد الشام بطريق الصالحية إلى القدس . وحدث أنه وصل الشام قبل قيام ركب الحج بشهور ؛ فأتتحت له فرصة زيارة الشام جميعها حتى حدود آسيا الصغرى ، وذاق حلاوة السفر والتجول لغير غرض سوى الاستطلاع والاستمتاع .

« وليس بغريب إذن أن يغرم ابن بطوطة بالتجوال والترحال ؛ بعد ما سمع من عالم الاسكندرية وشيخ فوه ما سمع ، وبعد ما رأى من أرض الشام ما رأى ، وأن يزيد هذا الغرام كلما زاد هو فى أسفاره ؛ لا سيما أن مركزه الديني سهل عليه كثيراً من عثرات التنقل ووعاء

السفر ؛ لأنه كان موضع التجارة والاحترام في معظم الأماكن التي حل بها »

### وصوله إلى مكة :-

بعد أن تنقل في الشام من بلد إلى بلد ؛ عاد إلى دمشق ، وخرج منها مع الراكب الشامي إلى الحج ، فوصل إلى المدينة المنورة ، ومنها إلى مكة المكرمة وادي الفريضة .

### طوافه في فارس والجزيرة :-

ثم سار إلى العراق مع أمير ركب العراق ؛ فمر على النجف وبغداد ، ثم انحدر إلى البصرة والأبلة ، وركب إلى عبادان ، وطاف في بلاد فارس ، ثم عاد منها إلى الكوفة وبغداد ، وتنقل في أرض الجزيرة حتى وصل إلى نصيبين وماردين ، ثم عاد إلى بغداد فوجد الراكب إلى الحجاز ، وسافر معه إلى مكة وأقام بها مجاوراً تلك السنة .  
خروجه إلى اليمن وإلى سواحل إفريقية الشرقية :-

سافر من مكة إلى جدة ، ثم ركب إلى سواكن ، ومنها إلى مرسى الأبواب باليمن ، ثم رحل إلى صنعاء ثم إلى عدن ، وأبحر إلى زيلع ومنها إلى كلوا بسواحل إفريقية الشرقية ، وعاد منها إلى ظفار ، ثم أبحر إلى هرمز والقطيف ومنها إلى مكة ، وقضى فريضة الحج للمرة الثالثة .

### زيارته بلغار :-

عاد إلى مصر من طريق جدة وعيناب ، ثم قصد الشام وطاف

في أنحائه ، ثم أوغل في بلاد الروم ومر على قونية وسمواس وصنوب ،  
ومنها أبحر إلى القرم وآزاق واتصل بالسلطان محمد أوز بك صاحب  
تلك البلاد ، وبعد أن تجول فيها ركب البحر قاصدا القرم وساح في  
بلاد القفجق ( قبحاق ) وهي روسيا الجنوبية وكانت تحت سلطان  
« إيد » من سلالة جنكيزخان عظيم المغول . ومن قفجق هذه رحل  
إلى بلغار ، قاعدة بلاد البلغار القديمة التي ذكرها ابن فضلان في رحلته ،  
وآثارها قائمة إلى الآن على ضفة نهر « الأثل » ، وهي واقعة على خط  
عرض ( ٥٤ ° ) ، وقد شهد فيها ابن بطوطة قصر ليا إلى الصيف . وبلغ  
ابن بطوطة بزيارته بلغار آخر حد من المعمورة في الشمال عرفه  
العرب ، « وما وراء أرض الظلمة » ويدينها وبين بلغار مسيرة أربعين يوما ؛  
وايكنه أضرب عن ذلك لعظم المؤنة فيه وقلة الجدوى . قال ابن  
بطوطة في هذا الموضع : « والسفر إليها لا يكون إلا في عجالات صغار  
تجرها كلاب كبار ؛ فإن تلك المفازة فيها الجليد ، فلا يشبث قدم  
الآدمي ولا حافر الدابة بها . والكلاب لها الأظفار ، فتثبت أقدامها  
في الجليد . ولا يدخلها إلا الأقوياء من التجار » . وقد ذكر ابن  
بطوطة شيئا عن أشكال الاستبدال في أرض الظلمة ، وهي عبارة عن  
مقايضة أو معاوضة يجريها التجار مع شعوب تلك البلاد ، ويأخذون  
بدلا من متاعهم السمور والسنجاب والقاقم . ولا شك أن هذا الوصف  
البارع ينطبق تمام الانطباق على وصف المتأخرين من الجغرافيين  
الذين يحدوثونا : عن « التندرا » ( صحراء روسيا الجليدية ) ، وما فيها

من ذوات الفراء ، وغزال الرنة الذى يستعمل لجر العجالات التى تنزاق على الجليد .

### رحلته إلى الهند وإقامته فيها : —

سار بعد ذلك إلى القسطنطينية فى عهد الإمبراطور «أندزونيكس الثالث» فى حاشية الأميرة اليونانية زوجة السلطان محمد أوزبك ، وأقام بها مدة يشاهد عظمته ، ثم عاد إلى القفجق ، ومن الفلاجاسار إلى خوارزم وبخارى وبأخ وهرارة ، ثم سار مغربا إلى طوس ومشهد وسرخس بجهات خراسان ، ثم عاد فاخترق جبال «هندوكوش» إلى «نبخ آب» وإقليم السند سنة ٧٣٤ م فر على ملتسان ، وأوغل حتى وصل إلى دلهى حاضرة السلطنة الإسلامية بالهند ؛ وهناك غمره سلطان الهند بالعطايا ، وأجزل له الصلات ، وخلع عليه ؛ وأخيرا جعله قاضى دار الملك دلهى ( دلهى ) ، وجعل راتبه مئتين ألف دينار فى السنة ومثلها من دخل بعض البقاع ، وقال للسلطان : « يا مولانا إنا على مذهب مالك ؛ وهؤلاء حنفية ، وأنا لا أعرف اللسان » ؛ فعين له نائبين يشاورانه ويعاونانه ، وبالع فى إكرامه ؛ فلا عجب أن وصفه ابن بطوطة بما لا يكاد يصدق .

### خروجه إلى الصين : —

وبعد أن قام فى الهند سنتين رغب فى الرحلة ؛ فأمره سلطان الهند بالخروج إلى الصين ، وقال : « إنما بثت إليك لتتوجه عنى رسولا إلى ملك الصين ؛ فانى أعلم حبك فى الأسفار والجولان » .

فصدع بالأمر سنة ٧٤٣ هـ ، ووصل إلى كنباية ، ثم أبحر على ساحل  
بليار إلى قاليقوط ، ثم إلى جزائر ملديف<sup>(١)</sup> ، ثم إلى سرنديب .  
ورجع إلى قاليقوط ، ومنها أبحر إلى أرض بنغالة ، ومنها إلى أرض  
جاوة ، ومن هذه إلى زيتون وكانتون بالصين . وليس من المحقق أنه  
تجاوز هذين البلدين ؛ على أنه يرجح أنه وصل إلى خان بالق بكين  
حاضرة ملك الصين .

رجوعه إلى بلاد العرب ثم إلى بلاده :-

عاد من حيث أتى ، فوصل إلى قاليقوط ثم إلى ظفار سنة ٧٤٨ هـ  
ثم إلى هرمز ، وأوغل في بلاد فارس ، ثم عاد إلى البصرة والكوفة  
وبغداد ، ثم إلى دمشق بعد أن غاب عنها عشرين سنة ، وطاف بمدن  
الشام ثم عاد إلى القدس ، ومنها إلى دمياط فالقاهرة أيام الناصر حسن ابن  
محمد بن المنصور قلاوون ، ثم إلى الصعيد إلى عيذاب ، ثم إلى جدة  
ومكة وأدى فريضة الحج للمرة الرابعة .

ثم عاد فاخترق شمالي إفريقيا ، ومر بتونس ، ثم إلى تلمسان ؛

---

( ١ ) يقول المرحوم أحمد زكي باشا : إن جزائر ملديف اسمها في الأصل

« ذيبة المهل » . وقد جرى الأفرنج على الاصطلاح الآرى ، وهو « مهل  
ذيبة » . وحرف الهاء غير منطوق عندهم ، فقالوا « مل ذيبة » . ثم انتهوا  
إلى « Maldives » . وجاء المترجمون في هذه الأيام فنقلوا عنهم بغير علم  
ولا رواية ، فقالوا « ملديف » وهو خطأ ، وأهلها لا يزالون يقولون  
« مهل ذيبة » .

ودخل مدينة قاس سنة ٧٥٠ هـ ووصل طنجة .

### رحلته الأخيرة :-

عبر من طنجة إلى الأندلس ، وطاف بأكثر مدنها الجنوبية ،  
وزار غرناطة ، ثم عاد إلى جبل الفتح و « سبتة » ، وساح في أرض  
المغرب الأقصى . وفي سنة ٧٥٣ هـ رحل إلى أرض السودان حتى  
وصل إلى مالي ، ثم عاد إلى تنبكتو ، ومنها ركب النيل (١)  
إلى كوكا . قال ابن بطوطة : « والنيل ينحدر منها إلى كاترة ثم إلى  
زاغة . . . وأهل زاغة قدماء في الاسلام ، لهم ديانة وطلب للعلم . ثم  
ينحدر النيل من زاغة إلى تنبكتو ، ثم إلى كوكو ، ثم إلى . . . وإلى  
. . . ثم ينحدر منها إلى بلاد النوبة وهم على دين النصرانية ، ثم إلى  
دنقلة وهي أكبر بلادهم . . . ثم ينحدر إلى جنادل وهي آخر عمالة في  
السودان ، وأول عمالة أسوان من صعيد مصر » . ثم عاد إلى حاضرة  
فاس عن طريق واحتي « غات وتوات » ، ومر بمدينة « ساجماسة » .  
ولما وصل فاس ، أملى أخبار رحلته على العالم محمد بن محمد بن جزي ،  
فكتبها هذا في أسلوب أدبي تأثر فيه كثيرا بكتاب ابن جبير ، ومات  
ابن جزي سنة ٧٥٧ هـ ١٣٥٦ م ، بعد عمله بمدة وجيزة . ويوجد بعض  
هذه النسخة التي خطها ابن جزي بيده ، بباريس بال مكتبة الأهلية بها .  
وتوفي ابن بطوطة سنة ٧٧٩ هـ ١٣٧٧ م في مراکش .

وما كتبته عن السودان جاء مفعما بالفوائد عن سكانه في ذاك

---

( ١ ) كان هذا متأثرا بما كتبه الشريف الإدريسي مما مر بك ذكره .

العصر . وأول شيء يتنبه إليه أن سكان السودان كانوا أرقى مما صاروا إليه في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر ؛ حينما دخلها الأوروبيون ، وأنهم كانوا مسلمين في الغالب : يكرمون رجال العلم ، ويأتيهم رجال القضاء والمعلمون من المغرب الأقصى والقطر المصري والشامي ؛ فيحلون عندهم على الرحب والسعة . وإن شأن المرأة عندهم كان رفيعا مساويا لشأن الرجل . ومما يستحق الذكر أيضا ، ما ذكره ابن بطوطة عن امتداد التجارة في ذلك العصر بين السودان الغربي وسائر الأقطار الأفريقية والشرقية .

#### نقد رحلته :

قد تصدى لنقد أخباره ابن خلدون في مقدمة تاريخه ؛ فقال : « ورد على المغرب لعهد السلطان أبي عنان ؛ من ملوك بني مرين - رجل من مشيخة طنجة ، يعرف بابن بطوطة . كان قد رحل منذ عشرين سنة قبلها إلى المشرق ، وتقلب في بلاد العراق واليمن والهند ، ودخل مدينة دهلي حاضرة ملك الهند ، واتصل بملكها لذلك العهد وهو السلطان محمد شاه ، وكان له منه مكان ، واستعمله في خطة القضاء بمذهب المالكية في عمله ، ثم انقلب إلى المغرب واتصل بالسلطان أبي عنان ، وكان يحدث عن شأن رحلته وما رأى من العجائب بممالك الأرض ؛ وأكثر ما كان يحدث عن دولة صاحبه ويأتي من أحواله بما يستغربه السامعون ، مثل . . . وأمثال هذه الحكايات . فتناجى الناس في الدولة بتكذيبه ، ولقيت أنا يومئذ في بعض الأيام وزير

السلطان . . . ففاوضته في هذا الشأن ، وأريته إنكار أخبار ذلك الرجل . ولما استفاض في الناس من تكذيبه قال الوزير : « إياك أن تستنكر مثل هذا من أحوال الدول بما أنك لم تره ، فتكون كابن الوزير الناشئ ، في السجن ( وذكر قصته ) . وهذا كثيرا ما يعثرى الناس في الأخبار كما يهتريهم الوسواس في الزيارة عند قصد الاغراب . . . فليرجع الانسان إلى أصوله ، وليكن مهيمنا على نفسه ومميزا بين طبيعة الممكن والممتنع بصريح عقله ومستقيم فطرته ؛ فما دخل في نطاق الامكان قبله ، وما خرج عنه رفضه .

وكل هذا للتنويه بأن أخبار ابن بطوطة في رحلته لا يوثق بها لما فيها من الأخبار التي لا يقبلها العقل .

### عناية الافرنج برحلة ابن بطوطة :-

عني الافرنج بهذه الرحلة عناية كبيرة ؛ فنقلوا بعضها إلى اللاتينية ونشروه ، ونقلها بعضهم إلى الانجليزية . وقد اهتم دفرمرى « Defrèmery » ، وكذا سانجوتى « Sanguinetti » بنشر الرحلة في أربعة مجلدات ببساريس ، وظهرت الطبعة الثالثة سنة ١٨٩٣ م وقد اقتصر بعض الافرنج على ترجمة وصف السودان أو آسيا الصغرى . وترجمت أيضا إلى الألمانية ولها ترجمة تركية تسمى « تقويم وقائع » . كل هذا يدل على ما للرحلة من الأهمية ، وما لمؤلفها من المكانة . وقد أنكر الافرنج على ابن بطوطة أموراً كثيرة ؛ وبخاصة ما نسبته إلى أهل إفريقية من معرفة السحر والأعمال التي تعد من المعجزات ؛

لأنها خارجة عن نطاق الاقتدار البشرى . ولا يقدر في أخباره جملة ،  
ما أنكره بعضهم على شيء منها . وإذا صح الإنكار لها فلا يصح  
أن ينسب إليه تعمد الكذب والفسق ، والأصح أن ينسب إليه  
تقرير أخبار سمع بعضها وشهد البعض الآخر ، وربما كان فيما سمع شيء  
من المبالغة . أما ما شهد به بعينه ، فلا سبيل إلى إنكاره .

هذا وقد اعتبر بعض الباحثين كتاب ابن بطوطة صفحة من  
التاريخ الاجتماعى الإسلامى ، أكثر منه كتابا فى تقويم البلدان  
والجغرافيا .

وتسمى رحلة ابن بطوطة « تحفة النظار فى غرائب الأمصار »  
وقد طبعت بالقاهرة سنة ١٢٨٧ هـ - ١٢٨٨ هـ - ١٢٢٢ هـ .

ويوجد عدا رحلة ابن بطوطة رحلات أخرى ، صنعها علماء المسلمين :  
منها رحلة ابن جبير ، وقد طبعت فى ألمانيا . ورحلة ابن خلدون ، وهى  
عزيزة الوجود . ورحلة ابن رشيد ، وابن الصلاح ، وأبى القاسم  
النجيبى ، ورحلة بدر الدين بن رضى الدين الغزى وغيرهم .

وكل هذا شاهد على مجهودات المسلمين فى تعرف أقطار الأرض  
وبراعتهم فى وصفها .

رجال الرحلات من غير العرب

ماركو بولو

مقدمة : ظهر فى أواسط آسيا فى القرن الثانى عشر قوم يسمون

التتر أو المغول . أصلهم قبائل من البدو الرحل ، أغاروا في عهد جنكينز خان ( ١١٧٥ - ١٢٢٧ م ) وأحفاده على البلاد الإسلامية ، واكتسحوا في طريقهم العواصم الإسلامية ، وأتوا على ما كان لها من مدنية وثقافة ، ولم يتركوا وراءهم من تلك البلاد سوى صحراوات جرداء وأطلال بالية . وقد اندفعوا بعد ذلك نحو الغرب ، واستولوا على معظم المدائن الروسية ، وخرّبوا الجزء الأعظم منها ، وخرج فريق من جيشهم وأغار على بلاد المجر ، كما أغار الفريق الآخر على بولندة ، وأشرفوا على سهول ألمانيا ، وعملوا في البلاد سائبا ونهبيا ، حتى أقاموا لأنفسهم في زمن قبلاي خان ( ١٢٥٧ - ١٢٩٤ م ) - دولة عريضة الأكناف تمتد من الصين حتى البحر الأسود ، ومن سوريا إلى جبال هيمالايا .

هامت قلوب المسيحيين في أوروبا من نهوض هذه « الطغمة الفاسدة العقيدة » ، وأخذ ملوكها وباباواتها - نخص بالذكر منهم جريجوار العاشر - يرسلون الرهبان والسفراء إلى « قبلاي خان » ( عظيم التتر ) ، يريدون بذلك دفع أذاهم بإنشاء العلاقات الودية من طريق التبشير بالنصرانية ، وكان الراهب « حنادي بلانوكارييني » أشهر من ذهب من هؤلاء السفراء . لم يصادف الرهبان ولا السفراء النجاح الذي كانوا يؤملون ، فكانوا يعودون إلى بلادهم ، ويروون عن سكان آسيا الوسطى والشرقية الغرائب ، مما حرك الرغبة في نفوس أهل ذلك العصر من الأوروبيين إلى الرحلة إليهم .

فى هذا الوقت كانت مدينة جنوة والبندقية ، تتنافسان فى حمل  
منتجات آسيا ونفائسها إلى أوروبا<sup>(١)</sup> . كان بين التجار الذين ينقلون  
تلك السلع ، تاجران أخوان من أهالى البندقية : هما نقولا بولو ( والد  
ماركو ) ، ومافيو بولو ( عمه ) . وكانت أكثر تجارتيهما متبادلة مع  
القسطنطينية . اضطرتهما شئونهما التجارية إلى السفر إلى شبه جزيرة  
القرم ، ومنها إلى بخارى ، حيث اتصلا ببعض السفراء الذين أرسلهم  
« قبلاى خان » إلى أخيه « هوللاكو » ، مؤسس دولة إيلخان فى  
فارس ( ١٢٥٦ - ١٢٦٥ ) ، فألح عليهما أولئك الرسل بالذهاب إلى  
الخان الأكبر ، الذى لم يكن قد رأى حتى ذلك الوقت أحدا من  
الأوروبيين ، فرحلا إلى هناك مخاطرين بعد أن أقاما فى بخارى ثلاث  
سنين ، ووصلا بعد سنة إلى قبالو ( خان بالق ) مقر ملك قبلاى خان ،  
فرحب بهما الخاقان الأعظم ، وأقاما معه مدة حدثاه فى خلالها عن  
الديانة المسيحية والمدنية المسيحية حتى بهراه ، فأوفدهما إلى أوروبا  
برسالة إلى البابا ، يسأله فيها أن يرسل مائة مبشر لنشر الدين المسيحى  
فى الصين ، وليعلمو الناس الفنون والصناعات ، فرجعا ووصلا البندقية  
سنة ١٢٦٩ م . ولما وصلا أوروبا كانت المسيحية فى شدة الاضطراب ،  
للنزاع بين الملوك والبابوات ، فقد ظل كرسى البابوية شاغرا نحو  
سنتين ، لذا صمما على العودة إلى الشرق ، وصحبا معهما ماركو بولو .  
ولم يكد يمضى على رحيلهما أيام حتى علما بانتخاب البابا ، فعادا إلى

رومة لتأدية رسالة قبلاى ؛ فأرسل معهما البابا اثنين من الرهبان لدومنيكان<sup>(١)</sup> ؛ ولكنهما لم يتحملا مشقة السفر ، فتركا آل بولو وقفلا راجعين .

### خروج ماركو وحظوته عند الخان الأعظم :-

وفى سنة ١٢٧١م بمافيو ونيقولا شطر بلاد الصين ، وصحبهما **ماركو** وكان شابا فى السابعة عشرة من عمره ، وإليه يرجع الفضل فى وصول تلك المعلومات إلينا . وسار ثلاثهم عن طريق فلسطين ، وحملوا معهم لوحة من الذهب وبعض شارات من الخان الأكبر ، مما سهّل لهم طريق سفرهم . وكان قبلاى قد طلب بعض الزيت من المصباح الذى يضىء القبر المقدس فى بيت المقدس . وظلوا سائرين بشتات وشجاعة من بيت المقدس إلى أرمينية عن طريق « كيليكيا » ولما وصلوا إلى مدينة هرمن الواقعة على الخليج الفارسى ( أنظر المصور شكل ٩ ) - عدلوا عن طريق البحر مفضلين الذهاب شمالا عن طريق صحاري فارس ؛ مارين بكرمان وخراسان . وانتهى بهم المطاف إلى هضبة البامير ( وقد سمع الناس بهذا الاسم لأول مرة من كتاب ماركو بولو ) ؛ فاجتازوها إلى كاشغر ، ثم إلى بلاد الخطا

---

( ١ ) أتباع القديس « دومنيك » . وكانوا علماء بأمور المسيحية ، مهتمين باقناع الملحدّين وهداية الضالّين . واعتمد عليهم البابا فى محكمة التفتيش . ويمتازون عن الفرنسيّسكان بأنهم كانوا يجوبون الآفاق ، ويختلطون بصنوف الناس رجاء تحليصهم من غواية الشيطان .

مع ابن بطوطه  
 هـ ٧٢٥  
 هـ ٧٢٥  
 هـ ٧٢٥  
 هـ ٧٢٥

خانات مسجيب



مع ابن بطوطه  
وہار کے دیوانے



(الخيـثان) ، ووصلوا إلى ضواحي مدينة لوب نور ، فصـحراء جوبي ،  
فالتابخوت ، فشانع تو ، حيث استقبلهم الخاقان في مصيـفة سنة ١٢٧٥ م .  
— بعد أن ساروا أربع سنين — ورحب بهم ، وسر كثيرا من ماركو بولو .  
ذلك الشاب الذي تحمل وعشاء السفر ولم يشنه التعب ، وكانت تبدو  
عليه علائم النجاة والنشاط . ومن ذلك الحين لمع نجم ماركو بولو .  
فطن ماركو بذكائه أثناء إقامته في بلاط كوبلاي — إلى ولع الخـان  
بالوقوف على أحوال الشعوب وأطوارها ، وكرهيته لسفرائه من  
المغول الذين لم يعنوا بشيء قليل أو كثير من أحوال البلاد والأمصـار  
التي جابوها . ومن ثم كان ماركو بولو يدون في مذكراته أثناء رحلاته  
المعلومات الجذابة الطلية التي يرى أنها تدخل السرور على قلب قبلاي ،  
فعظم ماركو في عين الخان الأعظم ، ونال عطفه الكبير ، وسرعان  
ما ارتقى في المناصب السياسية الخطيرة ، وقام بأعبائها خير قيام . وقد  
عين نائبا للمجلس الملكي سنة ١٢٧٧ م ، وظل زهاء ثلاث سنوات  
حاكما في بلاد « يانج شو » . وكان له من حسن السيرة ما دفع الأهلين  
إلى اعتباره مغوليا أكثر منه أجنبيا . وقد أقام ماركو بولو مع أبيه  
وعمه نحو سبع عشرة سنة في خدمة الخاقان ، كان هو في خلالها أقربهم إلى  
مولاه وأصحابهم له وأحبهم إليه .

ماذا قصه علينا ماركو بولو أثناء إقامته بالصين ؟ —

ذكر ماركو بولو جملة بقاع في آسيا الصغرى لا تمكن معرفتها  
الآن إلا بطريق الاستنباط . « فبلاخ » التي وردت في كتابه ربا .

كانت « بائع » ، و « اسفاسنس » ربما كان إقليم « الشاش » . ولكن « بكسام » مع جباله المشحونة بالمعادن ، وقطاره المعتدل الذى يستشفى المرضى بالسفر إليه ، ومع غنمه وخيله السريعة العدو ، والى لصلاية حوافرها لا تحتاج إلى الاتعمال بالحديد - يصح أن يكون إقليم « برخشان » القريب من منابع نهر جيحون وقد خطط ماركو بولو بقاع « كشغر وخوتان » وغيرها من أقاليم بخارى الصغرى . وما ذكره فى تخطيط هذه البلاد هو أحسن ما يقال فى جغرافيتها .

وقد حكى لنا الكثير عن سهول الصين الواسعة الباسمة وما تحتوى من كروم ، وقص علينا أخبار نزلها وأديرتها الكثيرة ومن فيها من الرهبان البوذيين ، ودور صناعة الملابس الحريرية والقطنية ، وكذا مدنها العامرة وريفها الجميل ؛ مما أثار خيال أمم الغرب . كذلك حكى لنا ماركو كيف كان المغول يروضون الفيلة ويستأنسونها بعد أن يقهروها . ووصف « نان كين » قاعدة الصين الجنوبية وصفا بديعا ، وذكر أن مدينة « قنساى » تعتبر أكبر مدن الدنيا ، وأنها تخرقها خلجان عليها اثنتا عشرة قنطرة ، وأن « كنفو » تقع على بعد خمسة وعشرين ميلا إيطاليا من هذه المدينة ؛ وهى مينائها الذى بوساطته تتجر مع بلاد الهند وجزائر العطر .

وقد أدهش ماركو بولو العالم عندما تحدث عن حنا القسيس « Priest John » ، وأحاط اسم هذا الرجل بكثير من الأقاويص العجيبة ؛ فذكر أنه كان زعيم « الكراييت » ، وهم

قبائل تترية مسيحية كانت تعيش جنوب بحيرة بيكال ، وقد تزوج جنكيزخان زعيم المغول باحدى بنات هذا القس ؛ وأن قبلاى كان متزوجا من نفس هذه الأسرة . وقد بولغ فى وصف هذا الشعب المسيحى مبالغة أدت إلى اعتقاد أوروبا بأن فى بلاد الصين أمة مسيحية مستعدة للترحيب بالأوروبيين ، ومد يد المساعدة إليهم ؛ إلا أنه سرعان ما تبين أن تلك الاشاعات لم تكن مستندة على أساس من الصحة .

### رجوع آل بولو إلى وطنهم :-

شعر آل بولو بحنين إلى وطنهم بعد سبعة عشر سنة ؛ كما أحسوا بأنهم أثاروا حنق بعض خواص الخاقان الأعظم ، وخشوا سوء العاقبة - لا سيما إذا مات قبلاى - فطلبوا من الخان الاذن لهم ؛ إلا أن مولاهم عز عليه أن يفارقه . غير أن الفرصة سنحت لهم بعد ذلك ؛ لأن أرغون - إيلخان بلاد فارس والابن الأكبر لهولاكو أخى قبلاى - خطب إحدى حفيدات قبلاى ؛ فقرر الخان أن يرسلها بطريق البحر خوفا عايتها من مشقة السفر البرى . وقد عهد بحراستها إلى ماركو بولو وذريته ؛ لما اشتهروا به من طول الخبرة فى الأسفار ؛ ولما عرفوا به من الولاء ، فسافروا فى ركبها سنة ١٢٩٢ م ، وأبحر البعث من جنوب بلاد الصين « زيتون » ، وزاروا عدة جزائر فى البحر المحيط ، ووصفها ماركو ؛ كما وصف جزائر يابونيا ( اليابان ) ، وحدثنا عما فيها من كميات الذهب ، وذكر أن بحر الصين فيه أبعون وأربعمائة وسبعة

آلاف جزيرة مظهرها عامر ، ووصف جاوة الكبرى بأنها أعظم جزائر الدنيا وأكثرها عطرا ، ولعله كان يريد « برنيو » إذ ما ذكره من الأوصاف لا ينطبق إلا عليها . وأما الجزيرة التي سماها جاوة الصغرى فهي سومطرة . وقد زار جزائر أندمان ونيقوبار ، وقال إن سيلان أو سرنديب محيطها أربعمائة ألفان من الأميال الإيطالية فقط - لا كما كان يظنها القدماء من الاتساع - ثم وصف سواحل الهند لما أن وصل إليها ، وتوسع في بيان عوائد أهلها البراهمة ؛ وقال إنهم في مقدمة طوائف الهند ، وأنهم حكماء الملة الهندية ، وأهم شامانيون ( أى أهل شعوذة وسحر ) وذكر أن في الهند قبرا لبعض حوارى المسيح يزوره أهل الهند ، ويظهر جنوله كثير من خوارق العادات . ولعله سمع هذا من بعض الناس . وبعد تخطيط الهند خطط بلاد فارس وبلاد العرب وقطعة من إفريقية الشرقية ، ووصف مدينة عدن باتساع تجارتها في المطريات والتوابل التي تحمل منها إلى بلاد الأفرنج ؛ بواسطة البحر الأحمر في سفن صغيرة تصل إلى السويس في عشرين يوما . وكذلك وصف هرمز . ويظهر أنه مر بالبصرة وقال إن أحسن التمر يخرج من هذه المدينة ، وقال إنها في إحدى طرق التجارة الهندية التي تقصد أوربا ، وأن بغداد منها على سبع عشرة مرحلة . ونحدث عن بوما وسيام وكوشن شيئا في الهند الصينية .

وفد ذكر الحبشة وزنجبار ومدغشقر ، والظاهر أنه سمع أوصافها من تجار الموانئ التي مر عليها . وكانت معلوماته عن الحبشة غاية في

الدقة . ويعتبر ماركو بولو أسبق الرحالة الذين عاشوا في القرون الوسطى ، أمدونا بمعلومات جغرافية قيمة . ولم يهمل ماركو بولو وصف الأصقاع النائية ببلاد سيبريا ، وسواحل المحيط المتجمد الشمالي ، والعربات التي تجرها كلاب المنطقة المتجمدة الشمالية والذب الأبيض فتزلق على الثلوج .

وصول ماركو بولو إلى بلاده :—

بعد أن أوصل أهل بولو حفيدة قبلاى خان إلى فارس ، استأنفوا السير إلى بلادهم مارين بمدينة تبريز ، ومنها إلى طرابزون حيث أبحروا إلى القسطنطينية قاصدين البندقية فوصلوها حوالى سنة ١٢٩٠ م . وبدأ ماركو بولو يقص على الناس أخبار البلاد التي زارها ، وقد أصغوا إليه في بادىء الأمر بشىء من السخرية ، وأسموه المليونى لكثرة ما كان يجرى على لسانه من ملايين من الشعوب وملايين من العملة .

أسر ماركو بولو وسجنه :—

لما وصل ماركو كانت الحرب مستعرة بين البندقيّة وجنوة ، فاشترك في الحرب ، وأسرى في سبتمبر سنة ١٢٩٨ م ، وفى أثناء سجنه صادف رجلا من أهل بيزة يدعى « رستكاتو » فأملى عليه وصفا لرحلاته ، فكتبها هذا بالفرنسية . ولا يزال هذا الكتاب باقيا إلى الآن يشهد بالفضل لصاحبه الذى قطع من الأرض ما لم يقطعه سائح قبله . ولما اخترعت آلة الطباعة سنة ١٤٥٦ م ، وطبع ما

دونه ذلك الرحاله العظيم عن الأقطار المختلفة — أثارت أقاصيصه دهشة العالم، وتردد صدى اسمه فى الأدب الأوروبى، وبخاصة فى الأدب القصصى فى القرون الوسطى . ويعتبر ما كتبه ماركو بولو مرجع أهل أوربا عامة فى جغرافية قارة آسيا . وقد ساه بعضهم بمخترع جغرافية هذه القارة . وازدادت أهمية كتابته أيام أن كشف البرتغال عن طرقهم البحرية ؛ حيث اثبتوا شيئا كثيرا مما قصه ماركو بولو بعد أن كان الناس يظنون أنه من المفتريات .

وتوفى ماركو سنة ١٣٣٤ م . بعد أن فتش برحلاته باب الهجرة أمام هواة الإرتياد والكشف .



# التجارة في العصور الوسطى

لا سبيل إلى تفهم أحوال التجارة في العصور الوسطى ، ما لم يهد لها بمقدمتين : أولاهما - خاصة بالفينيقيين . والثانية - خاصة بالطرق الرومانية .

## مقدمتان

### ١ - الفينيقيون

( ٢٢٠٠ - ١٢٠٠ ق م ) ( ١٢٠٠ - ٥٧٤ ق م )

كان أهل فينيقية من أصغر أمم الأرض ؛ ولكنهم كانوا على جانب عظيم من الاقدام والنشاط . ضربوا في التجارة والملاحة بسهم ؛ حتى أصبحوا في مقدمة أمم الأرض ثروة ونفوذ ؛ لعلمهم بمواطن الغنى ، وبالطرق الموصلة إليها : برا وبحرا . بلادهم ساحل ضيق يمتد على بحر المشرق أو البحر المتوسط ، شمال فلسطين بين جبال لبنان . وهذا البحر هو الذى كانوا أهل السيادة عليه قبل ظهور الاغريق والروم . وهذه البلاد أودية ضيقة تقع بين هضاب وعرة ممتدة إلى البحر ، وجبال هذه الناحية قد كسيت بالأشجار ؛ فكان في القمم أرز لبنان المشهور ، وفي المنحدرات الصنوبر والسرو ، وفي السفوح أشجار النخيل ، وفي الأودية الزيتون والسكر و التين والرمان .  
مدنهم : تتألف على طول الشاطئ الصخري دءوس من البحر

أو جزر منه تكون منها مرافئ طبيعية ، وفي هذه الموانئ أقام  
الفينيقيون مدنتهم ، فقامت صور ( تير ) ورواد في جزيرة يزدحم فيها  
السكان . أما مدينة جبيل وبيروت وصيدا ( أو صيدون ) فكانت في  
اليابس . ولم تكن أرض هذه البلاد لتقوم بأود هذا العدد من الناس ؛  
لذلك مال الفينيقيون إلى الملاحة والتجارة ؛ فكانت مدينة صيدا أهم  
مدن التجارة والصناعة أيام خروج الاسرائيليين من مصر ، وكانت  
صور محط رحال مندوبي البلاد منذ القرن الثالث عشر ق . م . وفي الواقع  
لم تكن فينيقية مع صغر حجمها خاضعة لحكومة واحدة ؛ بل كانت  
كل مدينة بضواحيها وقراها حكومة صغيرة قائمة بذاتها ؛ وكثيرا ما  
كانت تعترف بالزعامة لأقواها .

## التجارة الفينيقية

أعمال الفينيقيين : عاش الفينيقيون على التجارة ، ومهروا في صنع  
السفن وفي الملاحة . ساعدهم على ذلك جملة عوامل منها : غابات لبنان  
وخشبها الجيد من الأرز والتنوب ، ومنها موقع بلادهم الجغرافي على  
البحر بين مصر وأرض النهرين .

ولم يكن لسائر شعوب الشرق في زمنهم من مصر بين وكلدان ، ولا  
قبائل الغرب من أسبان وبرتغال وطمليان — عهد اركوب البحر ؛  
فجراً الفينيقيون وحدهم في تلك الأيام على تجشم السفر في البحار  
للاتجار ؛ حتى صح أن يدعوا بحق عملاء تجارة العالم القديم ، وقادة  
البيع والشراء : يبتاعون من كل شعب سلعه ، ويتقايضون منه على

غلات البلاد الأخرى ؛ فأنشئوا بذلك علاقات تجارية مستحكمة : مع الشرق برا ، والغرب بحرا .

قوافلهم : — كان من عادة الفينيقيين أن يرسلوا في البر قوافل تتجه وجهات ثلاث :

( ١ ) إلى بلاد العرب لجلب : الذهب ، والعقيق اليماني ، والبخور والصبر ، وعطور بلاد العرب ، واللؤلؤ ، والعاج ، والأبنوس ، وريش النعام ، وقرود الهند .

( ٢ ) إلى آشور وبابل ؛ لتعود منها بأنسجة القطن والكتان ؛ والخمر ، والأحجار الكريمة ، والماء المعطر ، وحرير الصين .

( ٣ ) وتقصد القافلة الثالثة بقاع البحر الأسود ؛ لتستجلب منها الخيل والرقيق ، والأواني النحاسية من مصنوعات سكان جبال قفقاسية .

أسطولهم التجاري : بنى الفينيقيون بخشب أرز لبنان المتين ؛ قوارب بأشعة ومجاديف ، حملوا عليها متاجرهم البحرية وما مست إليه حاجتهم ؛ تغدو بهم وتروح في أطراف بحر الروم ؛ بل اجتروا على اجتياز جبل طارق ، وخرجوا إلى المحيط ، ثم وصلوا شواطئ بريطانيا وغاللة ( فرنسا الحالية ) ، وسافرت طائفة منهم في خدمة أحد ملوك مصر « نخاو » ( ٦٠٩ — ٥٩٣ ق.م ) ، وجازت بحر الروم لتطوف حول إفريقيا — وقد تقدم ذكر هذا في الكلام عن هيرودوت — كما غادرت قرطاجة حملة ضربت نحو شاطئ إفريقيا إلى خليج غينا .

وقد كتب القائد البحري « حاتون » قصة هذه الرحلة .  
وكانت سفنهم أيضا تعبر البحر الأحمر إلى أوميز التي يقل إنها  
اسم لما بين مصب السند وبعباي من الهندستان ، أو لروديسيا من  
إفريقية ، أو لبلاد اليمن .

مستعمراتهم : — أنشأ الفينيقيون مكاتب تجارية في البلاد التي  
أتجروا فيها ، وهي مراكز حصينة واقعة على شاطئ بحر على مرفأ  
طبيعي ، يخرجون إليها بسلعهم ؛ فيأتي أهل تلك البلاد بغلاتهم ،  
ويقايضون عليها كما يقايض اليوم تجار الأوروبيين زنوج إفريقية .  
وقد أقيمت أمثال هذه الأسواق في قبرص ؛ وإليها رسموا طرقهم  
البحرية أولا ، ثم منها إلى جزائر بحر إيجه وأرض اليونان ، ثم أوغلوا  
في مصر وكريت وصقلية ومالطة وسردينيا وشواطئ أسبانيا ( مالقة  
وقادش ) . وكانت أسبانيا في عصرهم أغني البلاد المعروفة بالمعادن ،  
وبخاصة الفضة . كانوا يجلبون منها الرصاص والحديد والذهب ، والمقادير  
الوفيرة من الحبوب والنبيد والزيت والشمع والفاكهة والصوف .  
وقد اتخذوا هذه الأصناف أساسا للسلع التجارية التي يتداولونها في  
أوروبا الغربية ، التي أوغلوا في البحر إليها ، لجلب القصدير من  
مقاطعة كورنول بربطانيا ، والجلد والفراء والسكر باء ( السكرمان ) ؛  
وكان لهذا الأخير شأن كبير جدا في تجارتهم لغلو ثمنه ، ويظن أنهم  
وصلوا إلى بقاع بحر بلطيق للحصول عليه . وكانوا يستبدلون كل هذا  
بالبضائع الفينيقية من الأصباغ الأرجوانية التي مهروا في استخراجها  
من الأصداف التي صادوها من شواطئ بلاد اليونان ، وبالألبس

والأنسجة الأرجوانية التي كان يستعملها الملوك والأمراء قديما ، ثم البضائع المعدنية النفيسة وغيرها ، إذ أن الفينيقيين كانوا يستوردون المواد الأولية المتنوعة ، ثم يعالجونها بالصناعة ، ويصدرونها إلى البلاد التي أتوا بالمواد الأولية منها .

هذا ، ولم يكن يخطر ببال الفينيقيين في تأسيس هذه المكاتب التجارية إلا الاحتفاظ بمصلحتهم الخاصة . ولم يقلق الفينيقيون إلا من قيام تجارة الأمم الأخرى لمنازعتهم السلطة على البحار ، ومجاراتهم في الملاحة والاتجار ؛ ومن ثم كانوا يسكتمون الطريق التي يسلكونها عند عودتهم من الأقطار النائية ؛ ولذا لم يعرف أحد في القديم الجهة التي جابوا منها القصد . وقد بالغوا في إخفاء هذا السر ؛ حتى إنهم كانوا يغرقون السفن الأجنبية التي يصادفونها ؛ خشية أن تطلع على خطة سيرهم .

وكان لقرطاجة بنت فينيقية ، مكانة عظيمة في التجارة البرية والبحرية أيضا . وقد أسست في موضع تونس الحالية قبل ظهور رومة بنحو قرن . وسرعان ما صارت غنية قوية ؛ إذ استولت على صقلية وغيرها من جزائر البحر المتوسط غربا ، وكذلك إفريقيا الشمالية وأسبانيا الجنوبية . وأسست فيها جملة مدن ، أهمها قرطاجة الجديدة ؛ وفيها رسم الفينيقيون خططهم البحرية . وقد وصل حاتون القرطاجي في سياحته حول إفريقيا غربا إلى خليج غانة وسواحل كرون . وسارت قوافلهم البرية في إفريقيا ؛ فوصلت إلى مصر والبحر

الأحمر ، ثم إلى جهات السودان جنوبا لجاب الذهب والعاج وریش النعام والأبنوس ، تستبدلها بغلات قرطاجة من الحبوب والنبيلذ والملابس وغيرها مما يحتاج إليه أهل إفريقية في ذلك الوقت . وكان غناهم من أسباب سقوطهم ؛ إذ اختلغوا مع اليونان على صقاية ، ثم حصلت بينهم وبين الرومان الحروب البونيقية التي انتهت بإدخال قرطاجة في حوزة الرومان سنة ١٤٩ ق . م .

## ب - الطرق الرومانية

إن شق الطرق وتعبيدها يعتبر من أبحح الوسائل في رقى تجارة الأقليم . والمأثور عن المصريين القدماء أنهم كانوا أسبق أهل الأرض إلى إعداد الطرق ورصفها بالحجارة ونحوها . وكان للعبرانيين مثلها . أما اليونان فقد كانت لهم طرق كثيرة لم يعنوا برصفها وترميمها عناية أهل قرطاجة بها ؛ إذ كانوا يعتقدون أن الآلهة كفيلة بصيانتها .

كيفية إنشاء الطرق :

امتاز الرومان على الشعوب عامة باتقان الطرق ؛ فقد سلكوا في إنشائها مسلكا خاصا بهم : « كانوا أولا يخططون الطريق ، ويدقون أوتادا تدل عليه وتحدده ، ثم ينزعون التراب منه بحفره إلى أن يصلوا إلى طبقة من الصلصال ؛ يدقونها بالمدقات حتى يفور هذا الصلصال ، ويبسطون عليها طبقة من الحجارة الصغيرة ، ثم يدقونها ثانية حتى تفور في الطفل وتتماسك به وتمكسه صلابه ومتانة ، ثم يبسطون فوق هذه طبقة من الجص والرمل والطين ، تليها طبقة أخرى من الجص والرمل

والجير ، وبعدها طبقة من الحجارة الصغيرة ، ثم طبقة سميكة من الحجارة الصوانية الكبيرة . ولكي يكونوا منها سطحاً مستويا خاليا من المرتفعات والمنخفضات والشقوق - كانوا ينحتون هذه الحجارة ويلصقونها بعضها ببعض . وقد كانت هذه الحجارة تقطع أحيانا في أشكال سداسية منتظمة ، وتلصق بعضها ببعض إصاقا شديدا ، حتى ما كان يميز الفاصل بين حجر وآخر إلا من اختلاف لونهما .

وكان وسط الطريق أعلأ في مستواه من جانبيها ، وعلى الجانبين خندق تجرى فيه المياه . ولم يكن يسمح ببناء البيوت على أقرب من مثنى قدم إلى الطريق ، ولا أن تغرس الأغراس بجانبها ، لكي تبقى مكشوفة ، فلا يكون بقربها محل للصوف وقطاع الطرق يترصدون فيه المارة» .

أما عرض الطرق الكبيرة منها ، فقد كان لا يقل عن ٦٠ قدما . ويلاحظ في هذه الطرق أنها كانت ممتدة في خطوط مستقيمة ؛ فبمجرد أن تستولى الحكومة . الرومانية على الأراضي اللازمة لتلك الطرق (من غير أن تعوضها على أصحابها) تشرع في إنشائها على النحو السابق . فإن اعترضتها جبال شقتها ، وإن اعترضتها وديان ابتنت لها القناطر ، وإن صادفتها أنهار أقامت فوقها الجسور ؛ حتى لا تنحرف عن استقامتها إلا حينما يتعذر سيرها في خط مستقيم ، أو حينما يدعو الحال إلى تعريضها لتمر بالمدن المختلفة .

### تنظيم هذه الطرق :-

كان على جانبي الطريق المنشأ طريق صغير غير مرصوف ،  
يفصلونه بجدار وحجارة عالية ، بين الحجر والذي يليه عشرة أقدام ؛  
يرقاها الفارس إذا أراد الركوب ، وحجارة أخرى ينقشون عليها عدد  
الأميال إلى رومة . كما أنشئت الفنادق والنزل في مواضع على هذه  
الطرق ، بين الواحد منها والذي يليه نصف يوم . وقد أنشأ أغسطس  
قيصر ( ٦٨ ق م — ١٤ م ) في هذه الطرق « أربطة » ( محطات )  
للبريد على كل خمسة أميال ، وحمل المدن التي يمر بها نفقات هذا البريد ؛  
وكان في كل محطة أربعون فرسا مستعدة لنقل سعاة البريد وعمال الدولة  
ليليل نهار ، وجعل لها جداول مضبوطة يعين فيها وقت وصول البريد  
وقيامه ؛ كجداول السفن البحرية والسكك الحديدية الآن . كل ذلك  
ليعلم الامبراطور في رومة ، ما يحدث في أنحاء الامبراطورية من  
الحوادث ؛ بأسرع ما يمكن ، فيسهل إرسال الجنود بسرعة إلى مواطن  
الاضطراب . فترى أنه لما ثار أهل أنطاكية في عهد تيودوسيوس  
الثاني ( ٤٠٨ — ٤٥٠ م ) ، وصل خبر ثورتهم منها إلى القسطنطينية في  
ظهيرة اليوم السادس ؛ والمسافة بينهما حوالي ستة وخمسين وستمائة  
ميل .

### الغرض من إنشائها :-

ومن هذا تدرك أن الغرض الأول من إنشاء هذه الطرق كان حرييا ،  
لتسهيل الحركات العسكرية ، وتنقلها من مكان لآخر في أنحاء

الأمبراطورية العريضة .

وكان الخارجون على الدولة من العصاة والشوار يعلمون ما لهذه الطرق من أثر في كبح جماح ثورتهم ؛ ولذا حاولوا مرارا أن يخربوا هذه الطرق ؛ ولكنهم لم يكونوا يفلحون في ذلك إلا نادرا ؛ لمتانة رصفها ؛ فانها لا تتلف الآن إلا بنفسها .

ومع أن الغرض الأول من إنشائها كان عسكريا ، إلا أن هذه الطرق ساعدت على نشر التجارة وتوسيع نطاقها : في عصر الرومان ، وفي العصور الوسطى ؛ بل وعلى نشر المدنية الرومانية في بقاع شتى من الأرض .

كما أنها كانت من أكبر العوامل التي ساعدت الأمم المتبربرة على غزو الدولة الرومانية ، وإسقاط الغريبة منها ( سنة ٤٧٦ م ) ؛ بل وعلى انتشار الفوضى وتعطيل أعمال التجارة والصناعة في هذه الدولة الواسعة الأطراف ؛ مع أنها كانت من أعز دعائم الصوالة في الدولة . وإن المثل الدائر على الألسن للآن « جميع الطرق تؤدي إلى رومة » لدليل على تشعبها في أنحاء الأرض . وهالك أهم تلك الطرق :  
أهم الطرق : -

( ١ ) الطريق الأول : يبتدىء من روما ، ويسير جنوبا إلى أن يبلغ برنديزي ؛ وهناك القوارب تنتظر المسافرين ؛ فيعبرون إلى مدينة «دورازو» ، ويسهرون منها في خط مستقيم إلى القسطنطينية (بزنطيون) ويعبرون منها إلى آسيا ، ويسهرون جنوبا إلى «أنطاكية» فسواحل

الشام ؛ إلى أن يصلوا إلى القدس ؛ حيث تتفرع طرق مختلفة : بعضها يسير إلى مصر ، وبعضها إلى ما بين النهرين .

( ٢ ) الطريق الثاني : يبتدىء من روما ، ويسير إلى الشمال الشرقى ، ويمر فرع منه ببلاد النمسا والبوسنة والصرب والباغار ؛ إلى البحر الأسود ، ويسير الفرع الآخر شمالا إلى جنوب ألمانيا .

( ٣ ) الطريق الثالث : يبتدىء من روما إلى الشمال مباشرة ، ويمر بقرب جنوة ومرسيليا ، ثم يتفرع منه فرعان : أحدهما يخترق بلاد فرنسا ويمر بمدينة إلى بولون ، وهناك السفن تعبر بالمسافرين إلى بريطانيا . والفرع الآخر يسير من مرسيليا إلى أسبانيا ، فيخترقها من أقصاها إلى أقصاها .

وكانت هناك عدا هذه السكك طرق أخرى صغيرة ، ممتدة في كل الأقطار والأقاليم الخاصة للامبراطورية الرومانية في أوروبا وآسيا وإفريقية . وطول السكة ، من سور أنطونيوس في بريطانيا ، إلى آخر المسكة الرومانية في العراق عند أطراف بلاد فارس - كان نحو خمسمائة وأربعة آلاف ميل ، يسير فيها الجنود ، ويمر عليها التجار وأبناء السبيل آمنين مطمئنين ، كأنهم في روما نفسها ؛ يستريحون في مقاعد نصبت لهذا الغرض ؛ وإذا ما أعوزهم الماء أو أرهاقهم العطش - وجدوا بقرب كل ينبوع طاسا مربوطا بسلسلة لهذا الغرض .

والخلاصة أن الرومان أدوا للتجارة خدمات جليلة بانشاءهم هذه

الطرق .

## طرق التجارة البرية والبحرية بين أوروبا وآسيا

في المصور الوسطى

مقدمة : قيود التجارة في المصور الوسطى :

( ١ ) كانت التجارة في تلك القرون رهينة قيود كبتها وعاقبت حريتها : فأثمان السلع في الأسواق لم تكن خاضعة لأبسط القوانين الطبيعية المعروفة لدينا الآن ؛ وهي قوانين العرض والطلب ، أو المضاربات المشروعة ، أو غير ذلك من العوامل التي تسيطر على تحديد الثمن في عصرنا الحالي . وكان المتعارف وقتئذ أن لكل ساعة ثمنها يشمل في نظرهم : ثمن المواد الغفل ، وتكاليف الانتاج ، وأتعاب العامل . فكان لزاما على كل منتج أن يبيع سلعته بثمن هذا الثمن المستهلكين مباشرة ؛ بدون « الرجل الوسيط » وهو التاجر .

( ٢ ) حرمت الكنيسة تحريما باتا على المسيحيين إقراض المال بربا . ولما كان الإقراض حياة التجارة ، وعليه مدارها وامتعاشها ؛ فقد بقيت في حيز ضيق ، وشلت حركتها بهذا القيد ، ثم عادت إلى الانتعاش لما التجأ التجار إلى اليهود يقرضون منهم بربا فاحش ؛ تغاضى عنه الملوك والحكومات وقتئذ نظير ما كان يفرض على هؤلاء المرايين من شتي الاتاوات . إلا أن الكنيسة لما لمست ما أصاب التجارة من شلل ؛ بسبب هذا القيد — أباحت الإقراض للمنتجين ، وظهرت

أخيرا البيوت المالية في لمبارديا وغيرها ، وتأسست شركات تجارية في شتي الجهات .

( ٣ ) عدم وفرة المنارات التي ترشد السفن إلى الشفور ، وكانت غاية في الرداءة لا تصلح المرسو .

( ٤ ) كثرة المكوس التي فرضت علي التجار في الطرق العامة ، وعلي رؤوس القناطر والمعابر ، وعند حدود المقاطعات في المملكة الواحدة .

( ٥ ) المكاره والأخطار العظيمة التي تعرضت لها التجارة ورجالها على أيدي اللصوص ؛ إذ كانت اللصوصية في البحار عملا مشروعاً ، يمارسه حتي أبناء الأشراف كانوا يرابطون بأسطولهم قرب السواحل ، يتربصون بالسفن التجارية التي يسوقها سوء الطالع إلى الوقوع في أيديهم ؛ وسرعان ما ينشب عراك حامي الوطيس بين اللصوص والتجار ؛ ينهض عادة : بأسر السفينة وساب ما فيها ، وتقتيل أو تعذيب رجالها ، ثم إغراقها أو تحطيمها . ولم تكن الطرق البرية التي يسلكها التجار في ذاك الزمن ، بأحسن حالا ، ولا أوفر أمانا من البحار . وما كان الأشراف أنفسهم يتورعون عن أن ينصبوا الشراك للتجار وهم في طريقهم البري ، ويحموهم كغنائم إلى معاقلمهم وقصورهم ، وهناك يجردونهم من متاعهم وأموالهم .

حال من الفوضى هددت التجارة في تلك العصور ، وكادت تشل حركة التعامل ؛ أولا أن قبض الله لها جماعة تساندت

على دفع هذا البلاء عنها ، وعرفت في تاريخ القرون الوسطى باسم « عصابة الهنسى » . والهنسا في الألمانية القديمة معناها العصابة .

## الاتحاد الهنسى

ويظن أن أول اجتماع عقده التجار الألمان لهذه العصابة ؛ كان مركزه جوتلنده ، إحدى جزائر البحر الباطى ؛ حيث كانت السفن ترسو عليها في طريقها إلى فنلندة أوليفونيا أو السويد . أما عاصمتها « ويسبي » فكانت أعظم مركز لتجارة الأسماك في الباطى .

وفي منتصف القرن الثالث عشر ؛ اجتمع تجار مدينة « لوبك » الواقعة على نهر « التراف » ، مع مدينة « هامبورج » الواقعة على نهر « الآلب » . وكلا المدينتين من مراكز التجارة الهامة حينذاك . ووقعوا معاهدة تقضى بحماية تجارتهم في البحر الباطى . وما حلت سنة ١٣٠٠ م إلا وكانت هذه العصابة تضم نحو سبعين مدينة من كبريات المدن ؛ حتى إذا أشرف القرن الرابع عشر على الرحيل ؛ اشترك في عضوية هذا الاتحاد جميع البلدان الشهيرة في المقاطعات الممتدة من « ليفونيا » في روسيا شرقا إلى شواطئ « الزيدرزى » في هولندة غربا ، ومن « ريفال » على خليج فنلندة شمالا إلى مدينة « جتنجن » في مقاطعة « هانوفر » جنوبا .

### توزيع مدن الاتحاد :-

كانت مدن الاتحاد الهنسى موزعة في أربع دوائر رئيسية ؛

فكانت « لويك » زعيمة الدائرة الأولى ؛ تضم تحت نفوذها « هامبرج وبريمن ورسنك » وغيرها . وعلى رأس الدائرة الثانية مدينة « كلن » ؛ ويدخل فى نفوذها نحو تسع وعشرين مدينة من أمهات المدن التجارية . بينما ترى مدينة « برنسويك » على رأس الدائرة الثالثة ؛ يدخل فى سلطانها ثلاثة عشر مدينة . أما « دنزيج » الواقعة على أربعة أميال من مصب « الفستولا » ؛ فكانت زعيمة الدائرة الرابعة ؛ تخضع لها ثمان مدن . وبعضى الزمن اندمجت هذه الدوائر الأربعة تحت زعامة « لوبك » ؛ حيث كان أعضاء هذا الاتحاد يجتمعون فيها ممثلين لبلادهم ؛ ليقرروا ما يجدونه فى صالح التجارة وحمايتها من العابثين . وقد سنوا لها قوانين روعيت فى جميع البلدان الخاضعة لهذا الاتحاد ؛ ومن أبى الخضوع لها فنصيبه الخروج من عضويتها ، والحرمات من حمايتها .

#### نفوذ العصبة فى الخارج :-

امتدت نفوذ العصبة فى الخارج ؛ فأنشأت فى البلاد التى لا تنتمى إليها مراكز كانت بمثابة مستعمرات ألمانية فى وسط الممالك ، وجهزت تلك المراكز بمعدات تجارية : كالأرصفت التى ترسو عليها السفن ، والمستودعات التى تحتزن فيها السلع . وأهم تلك المراكز « لندرة » فى إنجلترا و « بروكس » فى البلجيك ، و « نوفجورود » فى روسيا و « برجن » فى النرويج . ويحدثنا التاريخ أن العصبة أعلنت الحرب على إنجلترا فى عهد « ادوارد الرابع » . ( ١٤٦١ - ١٤٨٣ م ) ؛ لأن الحكومة

شجعت الدهاء على مهاجمة مراكزها في لندرة ، يبعثها على ذلك  
حقدها عليها. وانتصرت العصابة على الانجليز ، وأفاحت في منع السفن  
الانجليزية من المتاجرة في البحر البلطى . وأخيرا اضطر الانجليز إلى  
الزوال على إراحة العصابة التي أمات عليهم شروطا لم تكن موافقة  
لرغباتهم .

وكانت مدينة بروجس « Bruges » في الباجيك ؛ من أهم المراكز  
التجارية الخارجية ، واعتبرت نقطة الاتصال بين تجارة الشمال والجنوب ؛  
وقد نالت من الغنى ما أصبحت به تنافس البندقية . أمام معرضها السنوى  
فقد كان التجار من جميع أنحاء أوروبا يؤمونه : يبتاعون منه فواكه  
حوض البحر الأبيض المتوسط ، وحرير فلورنسا ، وزيت فرنسا ،  
وخمور أسبانيا وإيطاليا .

ونوفجورود في روسيا كانت أعظم مركز تجارى في شمال شرق  
أوروبا ، وفي الممالك الواقعة شرق بولندة : تجتمع فيها منتجات روسيا  
الطبيعية والصناعية ، كالشمع ، والجلود ، والحبوب ، ويستبدل بها  
الصوف المصنوع في ألمانيا ، والحرير الواردة من وادى نهر الرين ،  
وخيوط الكتان الآتية من بلاد « الفلاندرز » .

وبرجن في النرويج كانت أهم مركز تجارى : مع أيسلندة ،  
والأرض الخضراء ، وبلاد إيقوسيا ( أسكتلندة ) . وأهم السلع التي  
كان يتعامل فيها هى الخشب ، والفراء ، والأسماك .

ترى من هذا أن نفوذ العصابة اتسع حتى شمل معظم أوروبا ،

وأصبحت العصبية قوة يخشى بأسها ، الما لها من النفوذ المالى ، والحربى أيضا . وقد هابتها الحكومات ، والأأمراء ، فنحوها امتيازات قيمة ، وأعفوها من دفع الضرائب . ولم ينته القرن الخامس عشر ، إلا وقد ملكوا زمام التجارة الأجنبية : فى اسكندناود ، والدنمارك ، وبروسيا وبولونيا . وكانت السلع تنقل تارة على اليا بس بوساطة الطرق الرومانية ، أو على الماء بوساطة الأنهار — لاسيا الرين ، والايزر ، والألب ، والأودر ، والفيستولا — فأثرى رجالها إثراء عظيما ، وكان لهم أسطول عظيم لهذا النقل : أجروا بعض أجزائه فى الحروب الصليبية لنقل الأوربيين إلى الأراضى المقدسة ، كما أنهم كانوا من أقوى العوامل على توكيد الصلات التجارية بين الشرق والغرب .

والخلاصة : أن هذه العصبية :-

أولا — أدت للتجارة — بل وللمدينة — أجل خدمة ، وأزالت من طريق التجارة ما كان يعترضها من عقبات .

ثانيا — أن أوربا مدينة لهؤلاء التجار الذين استطاعوا بجهودهم أن يحولوا الغابات والأراضى الموحشة فى الشمال ، إلى جنان فسيحة ، وأراض منتجة .

ثالثا — نشأت المدن الحافلة ، حيث كانت الأكواخ الحقيرة .

رابعا — أن ثراءهم الطائل أدى بهم إلى الترف والرفاهية ، فصعدت أوروبا بوساطتهم سلم الارتقاء الاجتماعى ، وتهذبت نفوس أهلها ، وثقفت عقولهم .

### اضمحلال العصبية :-

بدأت قوه العصبية في الاضمحلال منذ القرن السادس عشر ؛ بسبب ما قام بين أعضائها من المنازعات ؛ فلم تستطع أن تحمل المدن على احترام قوانينها . وما حلت سنة ١٥٣٥ م إلا وأزلت الدنمارك والسويد احتكار التجارة الهندسية من البحر الباطي ، وفتحت الباب على مصراعيه للأمم كلها في هذا البحر .

وفي سنة ١٥٩٨ م طردت الملكة اليصابات الانجليزية التجار الألمان من بلادها . ثم تسالت المدن الألمانية من هذه العصبية واحدة بعد الأخرى . والحقيقة أنه لم يعد لوجود هذه العصبية فائدة بعد أن توطد القانون ، واستتب النظام ، وأصبح في مقدور كل مدينة أن تتاجر في جو من الحرية ؛ ولها في القوانين حمى وملجأ . ولم تحل سنة ١٨٨٨ م إلا وقد انحلت هذه العصبية ؛ بعد أن أسدت إلى التجارة خدمات جليلة في ظلمات العصور الوسطى . وكانت بحق النواة الأولى لدوحة التجارة العصرية في تلك الأقاليم .

\* \* \*

أما وقد بينا لك أثر الرومان في تمهيد الطرق التي ساعدت على توسيع نطاق التجارة ، وشفعنا ذلك بالقيود التي كبلت التجارة في القرون الوسطى ، وأوضحنا كيف تغلب الأورويون حينذاك على ما صادفهم من عقبات - فلنذكر لك الآن الطرق التي كانت تنقل عليها المنتجات من القارة الآسيوية إلى حدود أوروبا ، ثم المسالك التي

سلكتها التجارة من جنوب أوروبا إلى أواسطها :-

كان من أهم نتائج الحروب الصليبية. أن تطاعت أوروبا إلى خيرات الشرق ، وعملت على الحصول على نفائسه وما فيه من كنوز غنية . منذ ذلك الوقت رغب الأوروبي في اقتناء حرير الصين والموصل ، وشاش الهند وجواهرها ، وعطور بلاد العرب ، وتوابل جزائر الهند الشرقية ، ولآلىء فارس ، فتوكدت أواصر الصلات التجارية بين أوروبا وآسيا ، وتولى نقل هذه المنتجات الآسيوية إلى أوروبا تجار شرقيون : معظمهم من العرب ، رحلت تجارتهم ، وأثروا من ورائها ثراء عظيما .

## طرق الشرق

كانت منتجات الشرق تسلك في طريقها إلى أوروبا طرقا مختلفة : أشهرها أربعة :

أولها - الطريق الباقي إلى الآن منذ القرن الثالث عشر ، من الهند إلى سواحل الغربية ، مارا بالبصرة على الخليج الفارسي إلى بغداد ، بطريق شط العرب ونهر دجلة . وكان التجار يصعدون في دجلة من بغداد إلى نحو الموصل ، ثم يقطعون سهل الجزيرة مغربين إلى وادي نهر الأرنؤ ( العاصى ) ، ثم إلى أنطاكية وسلاوقية على بحر المشرق ( الأبيض المتوسط ) .

ثانيها - هو هذا الطريق بينه إلى نحو الموصل ، ثم يسلك التجار طريق الهضاب العالية : من أرمينية وآسيا الصغرى شرقا ،